غرائب الأخبار

عن شرق افريقيا وزنجبار

تأليف

توفيق ميخائيل

« وبه ثلاث عشر صورة حقيقية »

الطبعة الاولى

« بمطبعة التمدن سنة ١٩٠١ م — ١٣١٩ هـ »

اهداء الكتاب

ذهب كثيرون من أصحاب المؤلفات الى اهداء مؤلفاتهم لذوي وجاهةٍ أو إخاءٍ ممن هم في عالم الاحياء طمعاً في نوال مبرَّةٍ أو تمكين علائق الوداد . وهذا أو ذاك لم يخرج عن حدّ طلب منفعةٍ ماديةٍ أو أدبية

على انني — وان كنتُ بعيداً عن زمرة المؤلفين — قد شذذتُ عن هذه القاعدة التي تكاد تكون مطردةً ونحوتُ نحواً جديداً فاني أهديتُ كتابي هذا الى صديقي الحميم « المأسوف عليهِ » الباقي رسمهُ بين صفحات هذه الرحلة ليكون كاكليل أضعهُ على ثراهُ الكريم بعد مضيّ حولٍ على انتقالهِ من الدار الفانية

هذا واني أجدُ من نفسي شعوراً بأن تلك الروح الزكية الطاهرة ستبتسم لهذه الهدية النقية الخالصة



مقدمة

لما كنت تجولت ببلاد شرق أفريقيا وزنجبار وعاشرت أهاليها مدة من الزمن كافية لدرس أخلاقهم وعوائدهم ألحّ عليّ الكثيرون من الاصدقاء والمعارف أن أجمع كتاباً شاملاً أهمّ ما يقال عن تلك البلاد السحيقة

ولما لم أرَ مندوحةً عن اجابة رغائبهم ألفتُ هذا الكتاب متبعاً فيهِ دائرة سياحتي مبيناً ما حلّ بي في أثنائها من شقاء ، ونالني من هناء ، يتخلل ذلك الاقوال المطولة عن البلدان التي وطأتها قدماي ، والمشاهد التي شاهدتها عيناي ، وعلى ما أظن أنهُ جاء غريباً في موضوعهِ إذ أبنتُ فيهِ عوائد وأخلاق ومعيشة بلاد جيبوتي ومدغشكر الفرنساوية ، وموزامبيق وكفروريا البرتغالية ، وعدن الانجليزية ، وزنجبار العربية ، كل ذلك بطريقةٍ مفيدةٍ مألوفةٍ لا تخلو من التفكهة كما سيتأكد لكل من أمعن النظر فيهِ ، لا سيما وقد زينتهُ برسومٍ ومناظر حقيقية من باب الحلية والتكميل

والله أرجو أن يصادف كتابي هذا قبولاً من كرام الجمهور ، وهو خير مسؤول

توفيق ميخائيل

الفصل الاول

الرحيل

لاسباب لا محل لسردها بل لا يهم القارئ ذكرها وطنتُ النفس ووطدت العزم على الرحيل الى أقطار بعيدة لم تكن معلومة اومحدودة لديّ تخلصاً من ورطة الفكر القتال . لا طلباً في اكتساب شيء من المال . اذ كما يعلم بعض المطلعين على رحلتي هذه ان لم يكن أغلبهم . اني كنتُ في عيشٍ رغيد قانعاً بجعالتي الشهرية التي لم تكن أقل من سبعة جنيهات ونصف

ففي عصر يوم الجمعة ١٤ ابريل سنة ١٨٩٩ خططتُ بعض اسطر تركتها لمن يهمهم امري . وعند الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم بعد ان انتهيت من اعمالي المصلحية وسلمتها لاحد زملائي حسب العادة ركبت عربةً نمرتها ١٤٨٩ ومعي حقيبتان (شانطتان) بهما شيء من ملابسي وحاجاتي وربطة فراش صغيرة . ثم قصدت محطة مصر متنكرًا حتى لا يعرفني احد اذ ارتديتُ بالطو يسترني حتى القدمين ووضعتُ عوينات سوداء وكان بقبضتي منديل أتلثم بهِ عند اللزوم

ولما وصلتُ كلفتُ حمالاً بنقل أمتعتي الى القطار المسافر للسويس وقد ابتاع لي تذكرة في الدرجة الثالثة نمرتها ٢٥٨٢ ومن ثمّ ركبتُ القطار وقد كان باقياً على ميعاد السفر خمس دقائق كنتُ اخالها خمسة ايام اذ كنتُ في وجل عظيم خشية ان يقف احد معارفي على كنه قصدي فيشهرهُ ان لم يؤخرني عنوة عن السفر فيسيئني من حيث يقصد الاحسان

ولما تحرك القطار توسلتُ الى رب العزة ان يرعاني بعينهِ التي لا تنام ويقوّيني

على مرارة مفارقة الاوطان والاهل والاخوان . ثم انحدرت عبراتي انحدار السيل من أعالي الجبال واختنقتُ بالبكاء . وما زلتُ على هذه الحال حتى وصلنا الى محطة بنها . وهناك أشغلتُ نظري بالباعة والركاب والمنتظرين وتناولتُ جرعةً من الماء أطفأتُ بها نار ظمإي . ولما عاود القطار مسيرهُ عاودني البكاء وانهيار الدمع واستسلمتُ للحنوّ والحنين وفارقني ذلك الجلد الذي أعهدهُ في نفسي حتى اني كنتُ أخشى تغلب الحنين الى الوطن على قلبي الضعيف فأنوي العودة قبل أن أصل الى السويس على أنني بعد أن قمنا الى الزقازيق أخذتُ أتجلد وأُحدّث نفسي بمواضيع شتى ثم تناومتُ وبعد قليل استولى عليَّ النعاس . نعاس الحزن والاضطراب ليس نعاس الراحة . ولذا كان يتخلل نومي حركات مفزعة مخيفة فأنتبهُ مذعورًا منزعجًا ثم أعاود النوم وهكذا حتى وصلنا الى السويس

وبعد أن أودعتُ أمتعتي أخذتُ أتجوَّل في المدينة . ليس للتفرُّج في شوارعها أو للتفسح في معارج احيائها بل انقيادًا أعمى لقوَّةٍ كانت تدفعني الى حيث لا أدري . وبينما أنا أضرب في ساحة المدينة وطرقها اذ باغتني فكرٌ كان كصاعقة صدمتني حتى كدت أسقط على الارض . . . . فيا لضيعة الامل ويا لخيبة المسعى . . . . كيف يتسنى لي الخروج من دائرة بلادي وليس معي جواز السفر . كيف يكون الحال اذا كشف الامر وأُرجعتُ رغم أنفي الى حيثُ أتيتُ . عندئذٍ ضاق صدري وتنفستُ الصعداء . ومما زاد كربي تذكري قلة تلك الدريهمات التي كنتُ امتلكها وهي لا تزيد عن أربعة جنيهات التي ربما لا تكفي لسفري لاول مينا ترسو عليها البواخر بعد الخروج من القطر المصري

ولكي أُفرج عن كربتي وأُخفف أثقال ورطتي قصدتُ خط السكة الحديد الموصل الى الحوض وركبتُ القطار الى هناك ثم جلستُ باحدى القهاوي وأخذتُ

في الاستفهام من صاحب المحل عن السفر وكيفيته وعما اذا كان يصعب الخروج من البلاد بدون جواز سفر . فأجابني بما هدأ روعي وسكن جأشي وأخمد شعلة افكاري اذ علمتُ منهُ سهولة السفر بدون جوازٍ ليس ذلك فقط بل وامكان النزول بالباخرة بدون تذكرة الا أن الجزاء على هذه المخالفة هو تشغيل مرتكبها بأحد الاشغال مدة سفرهِ حسب أمر القبطان وعند ذلك قلتُ في نفسي وما أبخس تلك الاجرة على مثلي في ظروفٍ حرجةٍ كهذه . وبعد قليل عدتُ للمدينة وأخذت أبحث عن مكتب شركة المساجيري ماريتيم ولما مثلتُ بين يدي الوكيل استفهمتُ منهُ عن يوم وصول الباخرة المسافرة الى الجنوب فعلمتُ منهُ أنها ستصل في الغد ، ثم سألتهُ عن قدر الاجرة لاوّل مينا بعد السويس واسم تلك المينا فصمت هنيهةً متفرساً في وجهي ثم قال : يفهم جلياً من سؤالك هذا انك غير عازمٍ على جهةٍ معلومة ؟ فأجبتهُ ليس ذلك فقط بل وليس معي جواز بالسفر . عند ذلك ازداد تفرُّساً واندهاشاً وقرأتُ على جبينهِ أنهُ ظنَّ بي سوأً ولما لم أرَ بدًّا من ايقافهِ على حقيقة الحال ابتدرتهُ قائلاً : اني أراك وقد دار بخلدك اني ربما كنتُ مرتكباً جريمةً تضطرني الى الفرار من وجهِ القانون وحاشاني من ذلك ، وانما أنا شاب بريء من كل وصمةٍ حرٌّ مطلق التصرُّف في نفسي ولزيادة الايضاح أُحيطك علماً انني الى هذه الساعة من عداد مستخدمي الحكومة الا أن هناك أسباباً ليس لها شأن في أعمالي المصلحية حملتني على ترك مركزي ووطني وأهلي واخواني ، كل ذلك دون أن يعلم بهِ أحد فناشدتك الله أن لا تبوح بشيء مما علمت وها بطاقتي ويدي فامدد لي يدك لمساعدتي بكل ما في وسعك اذا امكنك . وعقب هذا الافصاح رأيتُ على وجههِ سيمآء التأثر والرأفة ثم قال : ولكن أيها الاخ فلان (وقد عرف اسمي من البطاقة) كيف تقدم على أمرٍ خطيرٍ كهذا لاتدري عواقبهُ

وتترك وطنك وأهلك وأصحابك ثم تطوّح بنفسك الى حيث لا تعلم أين تكون وكيف تعيش خصوصاً وأنت على غير استعداد ماليّ يساعدك على السفر كما فهمتُ من كلامك . فأجبتهُ ان ما ذكرتهُ لك هو الصريح وأزيد عليهِ اني مستخدم من نحو ثمان سنوات بالسكة الحديد المصرية وماهيتي ليست بقليلة بالنسبة لمركزي . فضلاً عن أن نفسي كثيرًا ما كانت تحدثني بسرعة الترقية ما دمتُ في هذه المصلحة . ولكن كل ذلك لم يعقني عن تنفيذ رغائبي الحديثة وأطلب من الله أن يعوّضني خيرًا في ما فقدتهُ أو ما سأفقدهُ من الآن . واسمح لي أن أصرح لك بأن ليس في وسعي ان أزيدك علماً بحالتي أو أفصح لك عن تلك الاسباب التي ألجأتني الى ركوب متن الاخطار . وها أنا الآن بين يديك فاعمل ما بدا لك ان خيرًا أو شرًّا

وعند ذلك لم أتمالك نفسي فحوّلتُ وجهي عنهُ خجلاً منهُ وممن معهُ من العمال حتى انزوت تلك العبرات التي هاجتها تلك المحادثة الوجيزة ثم أشار لي بالجلوس وقال : ان أول مينا هي جيبوتي وأجرة الدرجة الثالثة اليها مبلغ كذا . . . فما رأيك . فأجبتهُ ان ليس معي هذا المبلغ وكل مامعي هو أربعة جنيهات عبارة عن مائة فرنك . فأجاب اذا كان الامر كذلك خذ تذكرة درجة رابعة وقيمتها تسعون فرنكاً بما في ذلك الاكل مدة السفر . فقلت . لو فرضنا أن العشرة فرنكات الباقية تكفي مصاريفي هنا حتى وصول الباخرة غدًا ومصاريف نزولي بها . فماذا يكون العمل عند نزولي الى مينا جيبوتي . فأجابني بعد أن تنهد تنهدًا كاد يحرك فيَّ عوامل الحزن والتأثر : اذن عليك بتذكرة رابعة قيمتها ستون فرنك دون الغذاء الذي يلزمك تدبيرهُ وليس هناك طريقة أخرى . ولقد فات حضرتهُ أن هناك طريقة أخرى اذا اتبعتها يتوفر لديَّ كل المبلغ الذي معي

وهي الطريقة التي نبهني اليها اليوناني صاحب القهوة في الحوض وهي طريقة دنيئة وليس من طباعي أن أقدم على مثلها

عندئذٍ لم أجد بدًّا من أخذ تذكرة درجة رابعة بستين فرنكاً وقضيت يومي في تحرير جملة مكاتيب ضمنها استعفائي لمصلحة السكة الحديد في قالب رسالة صغيرة لجريدة مصر . وفي الغروب قصدت فندقاً لقضاء الليل به . وبينما كنت أتناول العشاء عرفني رجل يوناني كان رآني وقت الصباح حينما كنت في مكتب شركة البواخر الفرنساوية . وكأنهُ كان عرف من حديثي شيئاً فأراد مساعدتي وعلى ذلك أملى عليَّ اسم تاجر يوناني في جيبوتي . وفي الصباح قصدت مكتب الشركة ولما علمت أن الباخرة ستصل عند الظهر خرجت للسوق لابتياع بعض مأكولاتٍ لتكون زادي مدة سفري وجهزت متاعي القليل وعند الظهر وصلت الباخرة ومن ثمَّ انضممت مع باقي الركاب وركبنا (اللانش) الزورق البخاري التابع للشركة لتوصيلنا الى الباخرة . ولما وصلنا اليها أعطيتُ أحد توابع مكتب الشركة نحو خمسة فرنكات أجرة نقله متاعي للباخرة وتستره عليَّ في سفري بدون (باسبورت) جواز سفر ثم سلمت مكاتيبي الى وكيل الشركة الآنف الذكر ليضعها بصندوق البوسطة بعد مسير الباخرة وقد عرَّفني باسم تاجر سوريّ مقيمٍ بجيبوتي وعلى ما علمتُ بعد وصولي لتلك المينا انهُ كان كتب لهُ عني لمساعدتي

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر (يوم الاحد ١٦ ابريل سنة ٩٩) أقلعت بنا الباخرة المسماة ايراوادي فابتعدتُ عن الوطن المحبوب ولسان حالي يقول

أُودّعكم والله يعلم انني ... أودّ بقائي والخلود اليكمُ
وما عن قلىً كان الرحيل وانما ... دواعٍ تبدّت فالسلامُ عليكمُ

الفصل الثاني

ركوب البحر أول مرة

ولما أبحرت الباخرة تنفستُ الصعداء كمن فرّج عن كربتهِ ذلك لعدم عرقلة رحيلي الذي لاأعلم اذا كان من ورائهِ شقائي أم سعادتي. ثم تنهدت تنهد الحزين الكئيب لابتعادي عن أرض الوطن المحبوب وشخصت الى السماء قائلاً . اللهم اني أستودع روحي بين يديك فلا تلقني فيمهاوي العطب ولا تتخلَّ عني في أرض غربتي ، ولما لاحت مني التفاتة الى الشاطئ هطلت عبراتي وتصاعدت زفراتي فخلوت على سطح الباخرة واستسلمت للبكاء من هول أمري في مستقبلي وحنيني الى الوطن الذي كان يختفي وراء الافق شيئاً فشيئاً . وتصورت حالة أهلي واخواني الذين لا يعلمون أين مقري الى هذه الساعة

دنت الشمس الى المغيب وقد مضى عليَّ بضع ساعات ولا أزال بمحلي الذي أشار بهِ عليَّ تابع مكتب الشركة وقت نزولي ، ودقت الاجراس لتناول العشاء وتزاحم المسافرون كلٌّ الى مائدتهِ . أما أنا فتزاحمت عليَّ الافكار . وبعد ساعةٍ من الزمن صعدوا الى السطح وقد ملأوا بطونهم وأخذوا يتمشون أزواجاً وفرادى وكان معنا جملةٌ من العساكر الفرنساوية قاصدةٌ جزيرة مدغشكر فاجتمعوا وكانوا تارة يطربون أنفسهم بأناشيدهم المسلية وأخرى يتبادلون نكاتهم المضحكة . وهكذا كان المسافرون على اختلاف درجاتهم في سرورٍ وحبور حتى الساعة العاشرة ، ومن ثم هدأت الحركة في السفينة واستولى على انحائها سكوت الليل وسكون الراحة وقصد كلٌّ فراشهُ حيث يكون النعاس الهادئ الذي تتجدد بهِ القوى البشرية

لتعاود أعمال الانسان الحيوية عند اليقظة

يقولون ان حياة الانسان نفيسة عزيزة لديه . نعم أولئك الذين أتيحت لهم الراحة . الذين اذا جاعوا أكلوا ما اشتهته أنفسهم واذا ظمأوا ارتووا بالماء الزلال الصافي واذا تعبوا تمددوا على أسرة الراحة حيث لا يجسر أحد على اقلاق راحتهم . وهم عدا ذلك هادؤ البال غير مطاردين بجيوش الافكار الفتاكة . نعم هؤلاء يصح القول عنهم ان حياتهم عزيزة لديهم كما كانت حياتي أمس عزيزة لديّ . أما الآن فاني أبيعها اذا وُفقتُ الى مشترٍ بأبخس الثمن لانها صارت قاتمة اللون ضعيفة الامل . فمنذ بعض ساعات رأيتها حياة ضنكٍ وتعب ، وشقاء ووصب ، حياة نكد وهموم ، حياة بلاء وغموم ، ولعمر الحق لمَ لا يقضي الانسان على مثل هذه الحياة التعيسة فيستريح من كل ذلك بل على الاقل ليفسح المجال لمن هو أجدر منهُ بالحياة حتى يتمتع بالفضاء الذي يشغلهُ سدًى ويجعلهُ من حرّ تنهداتهِ وزفراتهِ كتنورٍ متقد بالنار . فيا للتعاسة ويا لنكد الطالع

الآن الظلام مخيمٌ على هذا الكون وقد أرخى الليل سدوله على عوالم الاحياء . ولكن شتان بين النائم على فراش الراحة الناعم وعليهِ حلل الرضاء والهناء تقيهِ من عوامل الطبيعة حرها وبردها والمتمدد على خشب السفينة الصلبة عرضةً لهواء الجوّ البارد وهدفاً للامطار والندى . شتان بين الذي جاع فأكل وظمئ فارتوى وتعب فنام ذاك الذي لم يتبلغ من نحو عشرين ساعة ببلغةٍ وطوى الحشا على الطوى وصارت معدتهُ أفرغ من فؤاد أم موسى وقد جنّ الظلام ولم يكن لهُ مأوى يأوي اليهِ للنوم . واذا علمت ذلك وما هو الاّ نقطة من محيطٍ هل لازلت تزعم ان هذه الحياة نظير تلك

ومع ما أنا عليهِ من الهواجس قهرني سلطان النوم فأغمضت عينيّ الثقيلتين

وكان ذلك قبيل السحر وبعد ساعةٍ شعرت أن مياهاً تبللني ولكن لثقل النوم على ذلك الجسم المنهوك القوى تكاسلت وقلت ان هيَ الاَّ أضغاث أحلام. الاَّ انهُ لم تمضِ بضع دقائق حتى صرت مبللاً كمن سبح بملابسه . فقمت مذعورًا وقد تخيلت ان السفينة غارقة ولكنني كنت أسمع ضحكاً متزايدًا ممن حولي فأخذت أحملق بنظري حتى عرفت أن البحارة يغسلون السفينة كعادتهم وبأيديهم أنابيب المياه . وبينا أنا أتنقل من امامهم تذكرت سترتي التي كنت متوسدها وبها ساعتي وكل ثروتي التي لم تكن تزيد عن اثنين وعشرين فرنكاً (وهي لديَّ في ذلك الوقت كثروة روتشلد) فصرت أنشد ضالتي بين البحارة وكلهم كأنهم تواطؤا على عدم اجابتي والاكتراث بأمري . ولحسن الطالع عثرت عليها بعد شق الانفس بين المقذوف مع المياه القذرة

اذا تصوَّرتُ في هذه اللحظة أن للطيور أوكارًا وللثعالب أجحارًا وللضواري أوجارًا وللمواشي حتى التي معنا بالسفينة محالاً مخصوصة وكلٌّ في مأمنٍ وهدوٍّ وأنا الآدميّ التعيس في حالة كهذه أفلا يحق لي أن أُعاود الفكر في التخلص من تلك الحياة المؤلمة ؟ ولكن كيف أجسر على ذلك واعتقادي مكين في أمر تحريم قتل النفس وتصوّري ان الضلالة الاخيرة تكون شرًا من الاولى . اللهمّ هبني من لدنك صبرًا ونعمةً

ومما زاد الطين بلةً هو أنني كما علم القارئ لم اكن ركبتُ البحر قبل هذه المرة بل لم يكن وقع نظري على تلك البواخر ولا وطأتها قدمايَ . ولذا لم اكن أدري شيئاً البتة من عوائدها وقوانينها ومعاملاتها ولا الى مَن المشتكى فيها . بل لم اكن أعلم من أين يتيسر لركاب الدرجة الرابعة الحصول على قليل من الماء ولا أين المحالّ (بيوت الخلاء) وهذه مع الاسف الشديد عرفتها بعدُ واذ هي ثلاثية مشتركة

ولذا اعتراني عند وقوع نظري عليها امساك مستعصٍ استمرّ معي نحو ثلاثة أيام ، فحمدتُ الله ، وغاية القول ان عدم خبرتي جعل عندي البلاء الواحد أضعافاً ، ولما لم تكن هناك طرق لتخفيف الوطأة لم يكن لي سوى التحمل والصبر على الكريهة والله المعين

أشرقت الشمس للمرّة الاولى عليّ بالسفينة ونسيم الصباح العليل البليل بالبحر أحسن منهُ بالبرّ · وقد حرّك فيّ قابلية الطعام فملت الى امتعتي وأخرجت منها كسرة من الخبز وشيئاً من الجبن والزيتون وصرت آكل همساً وخجلاً نظراً لتعرضي في طريق الطالع والنازل والرائح والغادي · وبعد ان ملأت معدتي دنوت من اولئك العساكر وصرت انصت الى محادثاتهم · ولم تمضِ بضع دقائق حتى اشتركت معهم في الحديث · ولقد رأيت منهم اخيراً ثرثرة تبرهن على فرط جهلهم وغباوتهم فكلهم يعتقدون انهم من الطراز الاوّل بين البشر · يزعمون أنهم يفوقون عسكرية المانيا في النظام · والبوير في الصبر والعناد · والهنود في الفروسية · والقوزاق في طول القامة · وان دولتهم تفوق بريطانيا في الاستعمار · الى غير ذلك من الدعاوى الطويلة العريضة مما يضيق منهُ صدر السامع · على انهم في الحقيقة التي اختبرتها عياناً لا يضارعون الجندي المصري في كل ما يمكن ان يوصف بهِ الا انهم والحق يقال أرقى منهُ في الطعام الذي يغلب ان يكون من الفاصوليا واللحم المسلوق ثم تناول النبيذ الذي لا يستغنون عنهُ ظهراً ومساءً · وشيءٌ قليل من التعليم الابتدائي

اني لا أريد تكرار ذكر حالتي وندب حظي واطالة الشرح في وصف ما كابدتهُ من الشقاء والعناء في سفري هذا اذ لا أود تصديع خاطر القراء ، ولولا أن ذكر الحقائق حتى في سفاسف الامور تشتاق النفوس لقراءتهِ وتتوق الآذان لسماعهِ لما كنت ذكرت ما ذكرتهُ أو سأذكرهُ مما لاقيتهُ من المصاعب ، وتجشمتهُ

من المتاعب . ولقد يخال لي أن المطلع ربما ينسب لي المبالغة التي أنا براء منها والله عليّ خير شهيد

والآن نمدّ البصر قليلاً الى تلك القبة الزرقاء الصافية اللون ونمتع الطرف بفيروزج ذلك الماء الاجاج ونشنف الآذان بعجيج تلك الامواج التي تتلاطم بالسفينة فتتكسر على جانبيها ثم تتخاف عنها تلك اللآلئ الناصعة البياض ، ونهتز لا طربًا مع تلك الجارية المتبخترة قهرًا والمائسة لا عجبًا على عباب الماء ، ونحمرّ خوفًا لا خجلاً عند ذكر تلك الحيتان المتعقبة السفينة لالتهام فضلاتها ، التي كانت كآنسات وعقيلات يحتطن حول عروسٍ عند زفافها ، فما أحلى تلك المناظر وما أجملها ، فكم تروق لها النواظر ، وتنشرح لها الصدور ، وتنتعش منها الافئدة . ولكن مهلاً مالي أراني ضقتُ صدرًا لذكراها ، ومجتها نفسي كل ما تخيلتُ مرآها ، حتى كأني أشعر بدوارٍ لمجرّد كتابتي عنها . نعم ان لي العذر في ذلك ، فالحقيقة ان النفس لا تصبو الى تلك الحالة الاّ اذا كانت على اليابسة . حتى اذا ركب المرء متن البحر سئم وملّ وضجر بعد ساعات قليلة . كيف لا والمناظر عند الصباح هي هي ظهرًا وعصرًا ومساء وليلاً . أي كيف تكون حال من يسمع نغمةً واحدة أيامًا متواليات . الآن يخال لي أن من لم يركب البحر أوشك على فهم ما أقول ، ولذا لا نزاع اذا قلت ان ركوب البحر تصورهُ لطيف ، وحقيقتهُ انقباض ليس لهُ تصريف ولا تخفيف

أرى ان في نفس القارئ حاجة ؟ وما تلك الحاجة أكثر من سؤالٍ خطر ببالهِ طبعًا عند ذكر البحر وركوبهِ ووصف عليل نسيمه . وها أنا مجيبٌ حتى لا تبقى حاجةٌ في نفس يعقوب

نعم ، من الغريب اني لم أصب بدوار البحر ولا افتكرت في شيء من هذا القبيل ، ذلك مع عدم توفر شرط من شروط الراحة لديّ وعدم سبق ركوبي

البحر كما علمت. وما علّةُ ذلك الاّ من حرج المركز الذي أنا فيهِ وتراكم الافكار المقلقة ليلاً ونهارًا . وتتمة القول ان دوار البحر لايحدث غالبًا الاّ من زيادة التفكر فيهِ واستسلام الانسان للوهم منهُ . وكلما نشط المرء وملأ معدتهُ والتهى في محادثة أو قراءة أو لعب شيء ابتعد عنهُ الدوار ولم تبقَ لهُ سلطةٌ عليهِ وهذا ما اختبرتهُ بالخبر لا بالخبر

أما الآن وقد أجبتك على ما تريد فدعني أقول : قد مضى علينا أربعة أيام ونحن نشق عباب البحر الاحمر جنوبًا ، فعند العصر ظهرت لنا عن بعدٍ جبال العسب التي على الشاطئ الغربي من بحيث جزيرة العرب جنوبًا فمددت يدي الى حقيبتي وأخرجت خريطة أفريقيا التي كانت معي، وبعد أن بسطتها أخذت أسرح طرفي في عرضها ، واذا بأحد المسافرين بالدرجة الاولى دنا مني واستأذنني في النظر فيها فاذا هو انجليزيّ الجنس . ثم ابتدأ يسألني عن وجهتي وأشغالي المستقبلة . فوقف على حالتي من مجمل اجاباتي . وبعد أن تركني ومضى يتمشى عاد اليّ قائلاً : هل تستطيع السفر الى حيث البحيرات العظمى بأفريقيا (ڤيكتوريا والبرت نيانزا) ؟ فأجبتهُ بالايجاب . ثم قال : ربما يمكنني أن أوجدك معنا فيما بعد ، أما الآن فلا يتسنى لي ذلك اذ أني أحد رجال ارسالية قاصدة تلك الجهات لتخطيط السكة الحديدية . ومجتمعنا في بلدة مومباسا (التابعة لزنجبار) بشرق أفريقيا فابقَ بجيبوتي وبعد اجتماعي بباقي رفاقي القادمين عن طريق رأس الرجاء الصالح آخذ آراءهم عنك ولا أخالهم الاّ موافقين وطبعًا اننا سنتدبر في أمر نقلك الينا وما عليك الآن الاّ اعطائي عنوانك وتشجع . فشكرتهُ على مسعاه وانعطافهِ نحوي

وفي يوم الخميس علمنا اننا اقتربنا من جيبوتي . وكان المسافرون متهللين كما هي العادة عند الاقتراب من اليابسة بعد حرمان النظر منها بضعة أيام . وما أتت

الساعة الحادية عشر مساءً حتى لمحنا بعض أنوار فعلمنا اننا خارج المينا . وعند الساعة الثانية عشر (نصف الليل) ألقت السفينة مرساها ، فقلق النائمون لانقطاع حركة الآلات التي كانوا تعوّدوا سماعها ليلاً ونهاراً

واذ كنا أقلعنا من السويس في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الاحد ووصلنا جيبوتي في منتصف ليلة الجمعة تكون مدة سفرنا ماية وخمس ساعات تماماً . أما معدل مسير الباخرة فكان نحو اثني عشر ميلاً بحرياً في الساعة

الفصل الثالث

جيبوتي

« الوصول الى جيبوتي ، الاقامة في كوخ ، المرض ، وصف جيبوتي ، زميل مصري »

في الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة ٢١ ابريل سنة ٩٩ وطأت قدماي أديم أرض لم تكن تخطر لي ببالٍ من يوم نشأتي . وأبصرت عيناي وجوهاً وأشكالاً وأزياءً غير التي تعودتها باصرتي ، وطنّت في أذنيَّ أصوات ليست بالتي ألفتها . وبعد نظرةٍ من عمال الجمرك الى متاعي القليل قصدت احدى القهاوي . ولما طال بي الجلوس رأيت أن لابدَّ لي من المثول امام ذلك الشاب الذي سمعت عنهُ بالسويس وهو يدعى حنين ملحمه فصرت أُقدم رجلاً وأُؤخر أُخرى لما أصابني من الخجل ولكن هي الضرورة توجب اكثر من ذلك . فلما وصلت اليهِ حييتهُ وقدمت لهُ نفسي ثم علمت منهُ انهُ أتاهُ كتابٌ وفيهِ توصية عني ممن ذكرت آنفاً . وبعد أن تبادلنا السؤال والجواب وبسطتُ لهُ ما كان من أمري قدمتُ بين يديهِ القطعة التي تساوي عشرين فرنكاً قائلاً لهُ : ان هذا كل ما أمتلكهُ فتدبر في أمري ليكون لك الاجر والثواب على اعالة شاب غريب ليس له نصيرٌ في هذه البقاع سوى المروءة والانسانية ، وكنت ألفظُ ذلك وعبراتي تجري . وبعد أن لاطفني دعا أحد الصوماليين الذين يستخدمهم أحياناً وأمرهُ بالبحث عن محل أُقيم بهِ . وعند الظهر تناولنا الغداء معاً . وبعد العصر عاد الصومالي وعرَّفنا بوجود كوخ مناسب وأنهُ استأجرهُ بأربعة روبيات شهرياً (على ما أتذكر) وفي الحال أردت الانتقال اليهِ . وبعد مسيرة نحو خمسة عشر دقيقة وراءَ ذلك الصومالي نخترق صفوف اكواخ

الوطنيين المصنوعة على نسق منتظم يجعل الطرق على هيئة خطوط مستقيمة متقاطعة مع بعضها وقف الصومالي امام كوخ . ثم حلّ حبلاً يربط الباب (عوضاً عن القفل) واذا هو عبارة عن سياج من الخيش يحيط بدهليز ليس فيهِ سوى حفرة باحدى الزوايا — ولا أزيد ايضاحاً عن منفعتها — ثم غرفة على هيئة قبوٍ ذات باب صغير وهي وسقفها من القش المجدول على فروع أشجار ولكنها متينة تقاوم الريح . وبعد أن رتبت مسكني أو بمعنى أوضح وضعت متاعي باحدى الزوايا وقرطلاً للماء بزاوية أُخرى . خرجت وربطنا الباب بالحبل الذي ليس لهُ أدنى فائدة سوى ابقاء الباب موصداً لعدم دخول المواشي مثل المعزى وما شاكلها . ثم عدنا الى صاحبي ، فاستفسرني عن الحالة (وما الذي أُجاوب بهِ في مثل هذه الظروف سوى اظهار الممنونية والرضا وابداء علامات التشكر) على ان الحقيقة انني لما رأيت ذلك الكوخ انقبضت روحي واضطربت اضطراباً ما عليهِ من مزيد . ثم أخبرني صاحبي ان أقارب ذلك الصومالي هم جيراني ولا خوف عليّ (ولاهم يحزنون) . ولما تناولنا العشاء قصدت مسكني ومعي الصومالي مرشدي . وبعد ان فرشت فراشي ارضاً خارج الغرفة التي خشيت من انها تكون ملجأً للهوام والحشرات انصرف الصومالي بحجة انهُ متزوج وتمدّدت لشدّة التعب بعد عناء السفر . ولكن كيف أستطيع النوم وهذه الليلة الاولى وأنا في وسط أقوام متبربرة لا أعرف من عوائدهم شيئاً ، خصوصاً واني في مكان كهذا ، وخوفاً من تسلطن النوم عليّ تربعت وأخذت أشخص الى السماء المرصعة بالنجوم ولم أجد ما أقضي بهِ ليلتي الحالكة السواد (حقيقةً ومجازاً) سوى استسلامي للافكار والبكاء والنحيب . ولا مغالاة اذا قلت انني بقيت على هذه الحالة حتى انبثق نور الصباح . عند ذلك نقلت فراشي لداخل الغرفة واستلقيت على ظهري واستولى عليّ سبات عميق ، ولم أفق الاّ وقد مالت الشمس

الى الغروب ، فلبست ملابسي وهرولت مسرعاً الى صاحبي وقصصت عليهِ خبري فطمنني عن عدم تجاسر أحد بالاعتداء عليّ خصوصاً وان أقارب ذلك الصومالي هم جيرتي كما كان أخبرني . فتناولنا العشاء و بعد برهة انقلبت راجعاً الى حيث يحلو لي البكاء في تلك العزلة

كم كنت أود أن لا أكثر من ذكر الاختناق بالبكاء وتردد الزفرات وسكب العبرات حتى لا أوجد في نفس القارئ شيئاً من الانقباض ، ولكن ما العمل وأنا لا أُسطر سوى الحقيقة ، وكيف لا أذكر ذلك وحالتي كانت دائرة على محور الحزن والالم والشقاء ، فلو كانت نقيض ذلك لكنت أفرغت مافي جعبتي من ذكر مرادفات الهناء والصفاء والسرور والحبور . والغاية اني وصلت الى .... اني لا أعرف بماذا أُسميه ؟ وعما اذا كان يصح تسميتهُ بمنزلي أو ربعي أو داري لاني تضايقت من لفظة كوخ الثقيلة في اللفظ . كما واني أرى من جهة أُخرى ان لفظة عشة عامية لا أرضاها وليس تحت يدي الآن بعض الكتب حتى أستعين بها للبحث عن كلمة أُخرى فيا للذاكرة الضئيلة و يا لشرّ مَن تصدى للكتابة وهو خالي الوطاب حقاً انهُ يلقي بنفسهِ في مهاوي الانتقاد ويكون هدفاً لسهام التقريع إما لخطإٍ في الكلام أو سوء في التعبير أو تقصير في انتقاء الالفاظ وسلاسة الجمل وانسجام الكلام . ولكن دعني من ذلك فاني أراني أكتب ما أكتبه ليس لفائدة غيري في اللغة والانشاء الامر الذي ليس في وسعي وهو بعيد عني بعد الثريا عن الثرى انما أنا كمن يقص على أبناء وطنهِ بلغتهِ الدارجة ما رآهُ في تلك البلاد لوقوفهم على بعض الشيء منها سواء كان ذلك من باب العلم بالشيء أو من باب التفكه ، لاسيما واني على ما أظنّ أول من كتب بعد مرأى العين في هذه السنين الاخيرة عن تلك الاصقاع القاصية التي تكاد تكون أشبهَ بمجهولة وخصوصاً لدى أبناء وطني

وأراني شططت في وادٍ آخر كل ذلك لعدم تذكري لفظة اطلقها على مأواي، وليَ الحق في ذلك اذ لا يقال اني لاأنسى مسميات أصعب وأقل استعمالاً منها، من مثل كناس الظبي، وجحر الضب، وعرين الاسد، ووجار الضبع، ووكر الطير، ومذود الاتان، وخدر العروس، وعش الغراب، و برزخ الميت أو رمسه أو جدثه، وصومعة الراهب. وهكذا من مسميات كثيرة التي أتذكرها دون أقل عناء فكر. وتلك الكلمة الحقيرة (اسماً ومسمىً) تجعلني في ارتباكٍ عظيم — أي — قد مرت على بالي الآن لفظة يمكن اطلاقها على المحل الذي أقيم بهِ ألا وهي لفظة (خص) وقد سمعت هذه الكلمة كثيرًا بالوجه القبلي ولكنني لا أتذكر وقوعها تحت نظري كتابةً ولذا سأتجنب ايرادها ثانية حتى أتحقق منها. مع انها تعجبني كثيرًا لتقارب لفظها الى كلمة «خوص» الذي يقام الخص منهُ أو مما يشابهه. وخصاصة لاختصاصها بساكني الخص نظيري

وبوصولي رأيتُ ان الخادم اكترى لي سريرًا مصنوعاً من حبال مجدولة على قوائم خشبية (عنجريب) فتمددت عليه مرتاح الضمير لزعمي عدم امكان وصول الحشرات اليَّ. وقد كنت حصلت على شمعة، ولكن لرقادي في الحوش خارج الغرفة لم يمكن ايقادها نظرًا لعبث الهواء بها، فاكتفيت بالنظر الى ضوء السرج الطبيعية وما أحلاها. وعند منتصف الليل شعرت بقشعريرة شديدة وسخونة عظيمة أعقبها اسهال حتى انني عند الصباح حاولت الخروج للوصول الى صاحبي ولكن لم استطع البتة الانتقال من محلي فلبثت متمددًا والاسهال يتزايد سحابة ذلك اليوم ثم شعرت بضعف شديد فرأيت ان أدعو احدى جاراتي اللاتي كنَّ في طرب ورقص ذاك الوقت. فجاءتني منهنَّ اثنتان ومع اني أجهدت نفسي لتفهيمهما ان تصل احداهما الى ذلك الصاحب وتبلغهُ أمري الا ان أقوالي ضاعت سدًى.

فأشرت الى احضار من يفهم لغتي . فلم تفهما أيضاً أو ربما تجاهلتا لعدم الانتفاع مني . عند ئذٍ سلمتُ أمري لله وعاودتُ النزاع من شدة الضعف . وقد زادني البكاء تعباً. وبعد ذلك اشتدت عليّ وطأة الحمى فغبتُ عن صوابي وصرتُ أهرف وأنذعر من لاشيء . وفي اليوم التالي فارقتني الحمى قبل الظهر . وعاودني الاسهال الحاد وكنت أجيل النظر حولي فلا أجد شيئاً يمضغ ولا يشرب سوى قرطل الماء الذي خيمت عليهِ العناكب ولوّثتهُ الاقذار . ولم أجد مناصاً من تناول جرعة منهُ لأبلّ طرف لساني الجافّ وحلقومي الملتهب . وهكذا أمضيتُ ذلك اليوم والليلة الثالثة لمرضي . وقبل الصباح زارتني مَنْ تكرهُ زيارتها ، ولعبت معي دورها المهمّ فلم أفق الاّ بعد الظهر . ثم رأيتُ ان الاوفق ليَ الخروج حتى اذا سقطتُ ميتاً في الطريق يكون أوفق لديَّ من أن أقضي هنا ولا يعلم أحد بأمري . فتشجعتُ وارتديتُ ملابسي وخرجتُ قاصداً صاحبي الذي لم يفتكر بي مدة ثلاثة أيام متواليات ، وكنتُ أرى ان الارض تكاد تميد بي أو تهرب من امامي . ولما وصلتُ الى محلهِ وجدتُ الباب مقفلاً فعلمتُ انهُ نائم ولم أستصوب ايقاظهُ خشية التثقيل عليهِ . فقصدتُ احدى القهاوي . وهناك اضطررتُ مع خلوّ ذات يدي أن أطلب فنجاناً من الشاي . وبعد أن تناولتهُ شعرت بشيء من النشاط ولكن الاسهال أزعجني . ولما رآني صاحب المحل بهذه الكيفية ساعدني على ما أُريد ، وبعد ذلك أخبرتهُ بعدم قدرتي على دفع ثمن الشاي وقدمت لهُ ساعتي رهينةً حتى يدفع عني صاحبي القيمة المطلوبة مني . فأبى الرجل قبول الساعة و بدت عليهِ علامات الشفقة والتأثر . ومن ثمّ عدتُ الى صاحبي الذي اعتذر بعدم معرفتهِ محل اقامتي اذ ان الخادم الذي كان اكترى الكوخ طلع الى الجبل منذ ثلاثة أيام . وبعد قليل أحضر لي جانباً من الشوربة (الحساء) وعند المساء شعرت بتجدد قوايَ نوعاً

وفي اليوم التالي قصدت رجلاً يونانياً كنتُ سمعتُ عنهُ بالسويس ليساعدني على ايجاد عمل أعيش منهُ . فأخذني وتوجهنا معاً الى منزل رجل سوريّ الجنس يظهر من لهجتهِ انهُ أقام طويلاً بمصر واسمهُ الخواجه ابراهيم حداد . وبينما كنا نتعارف على ذكر بعض أشخاص مصريين . اذ خرجت زوجتهُ الينا قائلة انها انسرت كثيراً لسماع لهجتي المصرية التي هيَ لهجتها . وأخيراً تناولتُ معهم الغداء وانصرفت

وفي الايام التالية كنتُ أتردد على مكتب شركة السكة الحديدية الفرنساوية وبعد مقابلتي مع الباشمهندس العمومي الذي بيده مقاليد امور الشركة رجوتهُ ثانية وثالثة بل ألححتُ عليهِ لالحاقي بأيّ عمل ما . فأخذ اسمي ووعدني باجابة الطلب في ظرف هذا الاسبوع . ومن نحس الطالع انهُ لم يمضِ على وعده يومان الاَّ وصدر الامر بايقافهِ وايقاف كل العمال لسقوط الشركة في ارتباكات مالية نتيجة تلاعب بعض كبار الموظفين .

أما جيبوتي هذه فهيَ مينا تابعةٌ لفرنسا واقعةٌ في بوغاز باب المندب على شاطئ أفريقيا الشرقي على الدرجة الثانية عشر من شمال خط الاستواء ومنها تقوم الركبان والقوافل الى الاراضي الحبشية وفيها تبتدئُ السكة الحديدية الجاري تركيبها الى تلك البلاد ، وهي عبارة عن حيين أحدهما القديم المكون من اكواخ قائمة في وسط سهل يقطنهُ الصوماليون ولفيف من فقراء الاعراب وهم عراة حفاة لا يسترون سوى عوراتهم . وعيشتهم قذرة حقيرة وكلهم يُستخدمون في الاشغال الدنيئة من مثل حمل الاحمال ونقل البضائع وهلمَّ ، والاُوَل مسلمون غير انهم همج متبربرون أشداء البأس محبو الفتك والسلب . وغذاؤهم يكاد يكون قاصراً على الادرة أما اللحوم فنادرة

ثم الحيّ الجديد وهو للاجانب وبهِ مبانٍ مناسبة قليلة متفرقة ومخازن للتجارة وثلاثة فنادق وثلاث محلَّات عمومية (قهاوي) ومخبزان وبهِ مكتب للبريد والتلغراف معاً . وتوجد على مسافة نحو كيلو متر بعض أبنية لشركة السكة الحديد

ويستقون الماء من الآبار وهو يباع في الطريق بثمن غال . وقد يمكن للانسان أن يطوف كل هذه البلدة على القدم في ظرف أربعين دقيقة . وشمسها محرقة قتالة حتى ان كثيرين من الاجانب يسقطون أمواتاً في الطريق من ضربة الشمس . وأرضها مقفرة عارية من كل ورقة خضراء ولذا ترد لها بعض الخضر من الخارج كالقطر المصري وغيره . ويحكم البلد حاكم فرنساوي . وبها نفرٌ من العساكر السود أولاد السنيغال . وهي تبعد عن عدن بحرًا بمسافة لا تقلُّ عن عشر ساعات

وفي عصر يوم الخميس الموافق ٥ يونيه سنة ٩٩ أي بعد اقامتي بتلك المينا خمسة عشر يوماً وصل وابور البوسطة الفرنساوي الآتي من أوربا والسويس . فبينا أنا جالس امام حانوت صاحبي الذي كان ذهب لاستقبال الباخرة حتى يستلم بضاعتهُ الواردة بها اذ لمحتهُ عائداً ومعهُ زميلٌ لي في مصلحة السكة الحديد المصرية وهو أيوب افندي جرجس . فهذا كان علم بنواياي قبل رحيلي بيومين وقد كان أخبرني انهُ يودّ اللحاق بي بأول باخرة بعد سفري . فتعانقنا وكدت أطير فرحاً لمرآه . وفي الحال ناولني مكتوبين أحدهما بداير اسود (حداداً عليّ) وهو من شقيقيّ والثاني من صديقي الحميم (المأسوف عليه هنري بك خياط) وفحوى المكتوبين رجاء وتوسل لعودتي وقد أرسل لي شقيقايَ مائتي فرنك مصاريف عودتي الى مصر وعرض عليّ الصديق العزيز بآخر كتابهِ بقائي بجيبوتي مادمتُ أصرُّ على عدم العودة حتى يرسل لي مبلغاً يعينني على الانتقال من جهةٍ الى أُخرى الى أن تتيسر لديّ الامور فحرّرتُ مكاتيب رافضاً بها كل تلك الطلبات . وبعد التروي مع زميلي

أحضرت متاعي من ذلك الخص واستأذنت من الخواجه حنين في السفر مع ابداء الشكر الكثير لهُ وقد أعاد لي العشرين فرنكاً مع رفضي قبولها مرات . وعلى ذلك قصدت مع زميلي الباخرة بعد الغروب . أما التذكرة فسآخذها من ذات الباخرة لأننا لم نبتّ للآن على نزولنا بأيّ بلد

الى هنا وانقضت أيامي الحالكة بجيبوتي ومن يعلم بأيامنا المستقبلة وكيف تكون ولله مرجع الامور

الفصل الرابع

ركوب البحر المرة الثانية

« مشاهدة عدن[1] ، وجزيرة مدغسكر ، وعاصمة بلاد موزامبيق »

في الساعة العاشرة من مساء يوم الخميس ٥ مايو سنة ٩٩ أبحرنا مع الباخرة الفرنساوية « ناتال » وفي الصباح كنت قررت أنا وزميلي أن آخذ تذكرة الى مينا «بايرا» وبعد السؤال من الكومساري علمنا أن ثمن التذكرة بالدرجة الثالثة نحو اثني عشر جنيهاً فرأينا أن لا مناص من أخذ تذكرة بالدرجة الرابعة بالغذاء فكان ثمنها لايقل عن مئة وثلاثة وتسعين فرنكاً . وعليهِ لم يتبقَّ من الثمانية جنيهات سوى سبعة فرنكات ، خلاف العشرين فرنكاً الاولى

وعند الساعة التاسعة صباحاً من يوم الجمعة دخلنا ميناء عدن الواقعة جنوب بجيث جزيرة العرب شمال خليج عدن فنزلنا للبرّ واذا هي ميناء حربية ذات قلاع وحصون تابعة للانجليز . وهي محط رحال التجار الذين يقصدونها من بلاد الهند فأوربا وبالعكس وتنقسم الى قسمين :

عدن الجديدة وتقع على شاطئ البحر تماماً وبها مبانٍ كبيرة فاخرة على منحدر الجبل وتحت سفحه وامامها الحدائق والشجيرات فتزيدها بهجةً ورواءً وبها فنادق للغرباء . وأعظم تجارتها البن الوارد من داخلية بلاد العرب وبلاد الاحباش التي يرد منها الزبد أيضاً ثم ريش وبيض النعام وكثير من الاقمشة الحريرية الهندية والدخان وبها عربات للركوب بالاجرة

(١) مضافًا الى وصفها ما شاهدته في نزولي بها مرّة أخرى

وعدن القديمة وتبعد عن تلك بنحو أربعة كيلومترات وهذه ليس بها سوى أحياء الاهالي وأسواقهم، ولوصول النازل من البحر اليها أو الى داخلية البلاد لا بدّ له من المسير في احدى طريقين أولاهما مضيق ذو تعاريج وارتفاع وانخفاض يخترق الجبل الحائل بين الشاطئ والبلاد ، والثانية طريق منقور في بطن الجبل (نفق) لا يقل طولهُ عن كيلومتر وهو مشعل بالمصابيح آناء الليل وأطراف النهار لشدة ظلامهِ ولسهولة مسير العربات بهِ ومن هذا النفق يدخل الانسان في نفق آخر أقل طولاً من الاول

أما حرارتها فحدّث عنها ولا حرج وهي تكاد تكون كحرارة جيبوتي المحرقة المهلكة . ولكونها من المواني الكبيرة ترسو عليها المراكب الانجليزية وبواخر الشركة الالمانية وبعض مراكب شركات أخرى في ذهابها وايابها ويوجد فيها من نقود ممالك كثيرة وهذه بايدي صيارف طوافين من يهود العرب ، ويمكن ان يصرف الجنيه الانكليزي بنحو مائة وخمسة غروش صاغ او بواحد وعشرين شلن أو بسبعة وعشرين فرنك ، لان عملة البلد السائرة بين الحكومة والتجار هي الجنيه الانجليزي (طبعاً) والروبية الهندية الانجليزية التي كل خمسة عشر منها تساوي جنيهاً أما اذا كانت الروبية (المستعملة في مستعمرات المانيا) فصرفها يكون بالممارسة ولا تقل قيمة الجنيه منها عن ثمانية عشر روبية مع ان قيمة الفضة في الروبيتين واحدة ، فضلاً عن انه في بلاد شرق افريقيا اعتبار الاثنتين واحد . وليس بهذه المينا ديوان جمرك لمعافاة البضائع الصادرة والواردة من ذلك وما هذا الا لسهولة تقدم البلد واتساع نطاق التجارة بها حتى اذا نمت وشبت فيها الحضارة والمدنية والاحوال التجارية ضربت على صادراتها ووارداتها الضرائب وهذا شأن سياسة الاستعمار الانجليزية ، فيا لله ما أحسنها من سياسة مقرونة دائمًا أبدًا بالنجاح

وعند الساعة الثالثة ونصف من مساء ذلك اليوم مخرت بنا السفينة تخترق خليج عدن وبعد يومين أخذت تشق عرض المحيط الهندي الذي لحسن الحظ كان هادئاً ساكناً حتى عند الساعة الثالثة من صباح يوم ١٣ منه وصلنا الى ميناء دياجو سوارس بشمال جزيرة مدغسكر التابعة لفرنسا

ولما انبلج نور الصباح نزلنا بها وأخذنا في التطواف في انحائها واذ هي عبارة عن سهول واسعة ذات تربة تميل الى الاصفرار مكسوة بالخضرة الطبيعية التي ترويها الغيوث الهتانة وهي حديثة العهد في العمران وقد رأينا بها شجر اللبخ وأخذنا شيئاً من زهره المدعو « ذقن الباشا » ثم عيدان من قصب السكر هائلة الطول ووقع تحت نظرنا اتفاقاً شجيرة قطن أنبتتها الطبيعة واذ عودها يضاهي عود الاذرة النيلية طولاً فاستنتجنا من كل ذلك ان أرضها خصبة للغاية ، ولكن لما كان الاهالي المدغسكريون (ويسمون بالمجاش) كسالى خاملين فهم لا يهتمون بالزراعة مطلقاً بل يكتفون بالاعمال الحقيرة التي ليس من ورائها سوى كفاف العيش ، وهم يتكلمون لغتهم المجاشية والفرنساوية أيضاً . أما ثروة هذه البلاد فأهمها من خشب الآبنوس والبقر البري الذي يصطادونهُ فيستأنس في بضعة أيام ثم يصدرونهُ الى مستعمرات شرق افريقيا وجنوبها ، والثور الذي يساوي في مصر نحو عشرة جنيهات مثلاً لا يزيد ثمنه هناك عن أربعين أو خمسين فرنكاً على الاكثر ، والحكومة هناك مستعدة لاعطاء أراضٍ لمن يريد أن يزرعها ويستغلها وبعد مضيّ مدة معينة يدفع عنها للحكومة شيئاً زهيداً من المال لاثبات الملكية وبعد ذلك تضرب عليها ضرائب طفيفة . ومع ماعليه الاهالي من الفاقة الا انهم ومنازلهم على غاية من النظافة ولونهم أحمر أسمر وتندر فيهم ملاحة الوجه وهم قصار الشعور ضخام الشفتين جداً ، ويجوز للغريب (الابيض) ان يدخل مساكنهم ويفعل ماسوّلت لهُ نفسهُ الامارة بالسوء ولا هناك مَنْ يعارضهُ

في ذلك حسب ما عوّدهم شعب الامة الحاكمة ، وقد اتفق ان أحد الفرنساويين الذين كنا نصطحبهم أراد الدخول في أحد المساكن فأخبره رجل كان جالساً بقرب الباب بأن ليس بالمنزل أحدٌ ، فانتهرهُ الفرنساوي قائلاً : صه أيها المجاشي فنحن سادة هذه البلاد . ويوجد هناك بعض من أهالي جزائر البوربون والسيدات منهم مليحات الخلقة نحيفات القوام لا يعيبهنَّ سوى لونهنَّ المائل للاصفرار قليلاً ، وعلى ذكرهنَّ أقول ان النزيل في جزائر البوربون يجوز لهُ أن ينتقي واحدة منهنَّ حتى من بنات المدارس لتقيم معهُ الى أجلٍ غير مسمى مقابل أجرة تتقاضاها شهرياً حتى اذا أراد الافتراق منها لضيق ذات يدهِ أو لسببٍ آخر كان لهُ ذلك ولو كانت رُزقت منهُ بأولاد

وبعد أن قصصنا شعورنا وحلقنا ذقوننا عدنا الى الباخرة وانتقلنا مع أمتعتنا الى باخرة أخرى أصغر من الاولى تسمى « لاچيروند » حسب المعتاد

ونحو الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم أقلعنا من هناك ، وما كنا نرى في المحيط الهندي سوى كلاب البحر التي كانت تدنو الى خط سير المركب صفوفاً منتظمة وهي تقفز في الماء قفزاً للوصول اليها زاعمةً انها غنيمة باردة فتلتهمها حتى اذا اقتربت ورأت فعل المركب بالمياه تشتت شملها واختفت تحت سطح الماء ، ثم الاسماك الطيارة وحجم الواحدة منها حسب التقدير النظري لا يزيد عن حجم السمانة الاّ انها مستطيلة عنها وهذه الاسماك تطير أسراباً على ارتفاع نحو متر تقريباً فوق سطح المياه وذلك هرباً من صوت ضرب آلات الباخرة وتستمر طائرة الى بعد نحو مائتي متر أو زيادة

وحوالي الساعة السابعة من صباح يوم ١٧ منه دخلنا مينا جزيرة موزامبيق عاصمة بلاد موزامبيق التابعة لدولة البورتغال ولما وقعت أبصارنا ونحن بالباخرة على

أرض هذه الجزيرة العاصمة تذكرنا جهة قصر النيل و بولاق المشرفة على نهر النيل لانها تماثلها تماماً بل ان الارض المقابلة لها تكاد تشبه منظر الجزيرة (منتزه القاهرة)

وبعد أن نزلنا الى البر أخذنا نجول في الشوارع والطرق واذ هيَ غاية في البهجة والنظافة والنظام . ورأينا فيها سوقاً يحيط بها سورٌ عظيم و يباع فيها الدجاج والبيض واللحم والفواكه : منها الموز وفاكهة القشطة وجوز الهند وقصب السكر الذي يوازي العود منهُ ثلاثة عيدان من القصب المصري والبرتقال وهذا أصغر حجماً وأقل حلاوةً من برتقال بلادنا وفاكهة تسمى باباز أشبه بالشمام ثم سوقاً أخرى منتظمة تباع فيها الاسماك وهناك كنيسة عالية منقوش عليها تاريخ تشييدها وهو في سنة ١٨٠١ ثم مدرسة للفنون والصنائع ومحلات لوكلاء وقناصل الدول وقلعة حصينة على مدخل المينا قيل لنا انها مبنية من نحو أربعمائة سنة تقريباً . وبالاجمال فان منظر تلك المدينة لا يقل عن منظر شبرا والعباسية ومهمشه ولكنها والحق يقال أكثر نظافة . أما الحركة التجارية فيها فبطيئة جدًّا أو هي تكاد تكون معدمة لاننا في أثناء تجوالنا في أغلب الشوارع لم نرَ أحداً مارًّا من الاهالي أو النزلاء ، ومن الغريب ان ليس بها محلات عمومية يأوي اليها الغرباء كالقهاوي والفنادق ، و محلات التجارة لا تمتاز عن هيئة أبواب المنازل بشيء ما اذ ليس عليها (يافطات) أو أي علامة ترشد النزيل اليها ولعل لهذا وذاك أسباباً لم نتوصل الى معرفتها لقصر مدة مكثنا بها وعدم وجود مرشد يفهم محادثتنا حتى كنا نستعلم منهُ

أما الاهالي الاصليون فهم سود همج قبيحو المنظر يشبهون الحباشيين في ضخامة الشفتين وبروز الخدين ويزيدهم قباحة التهاب أفواههم وتلف أسنانهم لافراطهم في أكل الشته الكاوية وهم مدمنون رجالاً ونساءً على تعاطي شرابٌ مخدر مصنوع من ماء جوز الهند وقد لبثنا بتلك المدينة من الصباح الى بعد الاصيل

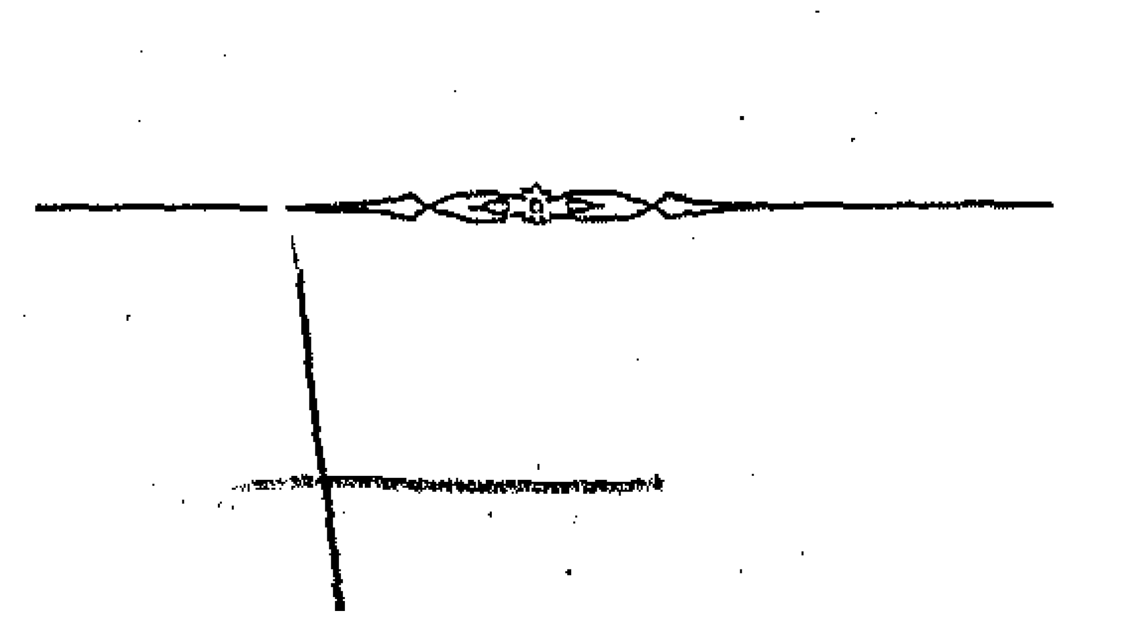
ثم ودعناها وفي النفس شيء لمشابهتها لبلادنا كما ذكرت

وفي الساعة الخامسة من مساء ذات اليوم أقلعنا ووجهتنا الجنوب وسرنا في خليج موزامبيق المحصور بين جزيرة مدغشكر وموزامبيق وفي صبيحة اليوم التالي أرغى البحر وأزبد وصارت السفينة تميل ذات اليمين وذات الشمال حتى ان كثيرين من المسافرين اعتراهم ما اعتراهم ولم يجدوا مفرًّا من ملازمة فراشهم وقد كنا نزعم انها رياح ولا تلبث ان تنقشع ولكن خاب فألنا لان الحالة استمرت سحابة ذلك اليوم والليلة التالية وعند السحر رأينا ان ما كان من البحر أمس لم يكن بالذي يذكر اذ هاج البحر وماج وتلاطمت السفينة بالامواج وصارت تعلو بنا ثم تنخفض كأنها ستقذف بنا من حالق الى مهاوي العطب ولما كانت تصطدم بتلك الامواج التي كانت تعترضها كانت المياه تتراكم ثم تطغي على سطحها فتغسله أما نحن فكنا ننقلب تارة على ظهورنا وننكفئ طورًا على وجوهنا

ولا تسل عن سوء حالنا في ذلك الوقت وما أحاط بنا من الهموم والاكدار التي لازمتنا فلم نتخلص من شرها الا باقترابنا من ميناء بايرا وهي المينا التي نقصدها فعند ما ظهرت لنا أشباحها تهللنا فرحًا حتى عند الظهيرة من يوم الجمعة ١٩ مايو دخلنا المينا وألقت السفينة مرساها وحمدنا الباري ولما كانت الامطار تهطل في ذلك الوقت فضلنا البقاء قليلاً ريثما تكف ولكننا لما علمنا ان أمطار هذه الاصقاع يطول مداها تأهبنا للنزول وبعد ان استحضرنا متاعنا نزلنا بقارب لرجل يوناني في سن الكهولة يعرف قليلاً من العربية فتوسمنا فيه خيرًا زعمًا منا انهُ يرشدنا الى ما فيهِ راحتنا اذ تربطنا واياه رابطة متينة هي فضل بلادنا على أبناء جلدتهِ ان لم يكن في معرفتهِ القليلة بالعربية ما يجعلهُ يحنو ويصبو الينا لتذكرهِ أبناء تلك البلاد وما هم عليهِ من اللطف واكرام الغريب ويجدر بي الاعتراف قبل ختام هذا الفصل والدخول

في تلك البلاد السحيقة بأن كل ما كان لدينا من الدراهم وقت ركوبنا ذلك القارب لم يكن أكثر من اثنين جنيه

وليدعنا القارئ الآن في القارب نتحادث مع صاحبنا اليوناني والامطار تهطل علينا ولا شيء يقينا بللها



الفصل الخامس

باپرا ببلاد كفروريا وسوء حالتنا فيها

فلما وصلنا البرّ عرضنا متاعنا لعمال الجمرك وكلهم من البورتغاليين وبعد أن أخلوا سبيلنا سألنا ذلك اليوناني صاحب القارب عن الاجرة التي لهُ . فأجابنا انها عشرة شلن أو هي نصف جنيه (أو بمعنى أوضح ربع ماليتنا) فاندهشنا اندهاشاً ممزوجاً باضطراب وبعد أخذٍ وردّ اكتفى بستة شلنات ثم رجوناهُ لمرافقتنا حتى يرشدنا الى احدى المحالّ فأبى فسخطنا عليهِ وبعد أن حملنا أحد العبيد شيئاً من نصف متاعنا وحملنا نحن الباقي بأنفسنا أخذنا نسير في البلدة ولما كانت أرضها رملية كان سيرنا فيها عسراً جداً . نعم ان بها رصيفاً من الاسمنت ولكن لم يقع نظرنا عليهِ (لان الغريب أعمى) الى أن تقابلنا مع (بدال) بقال يوناني يعرف بعض كلمات عربية ولما استفهمنا منهُ عن محل للمبيت بهِ علمنا منهُ أن أجرة النفر عن الليلة الواحدة في الفندق نصف جنيه ثم أشار علينا بأن نقصد محل رجل سوري اسمهُ رزق الله جبور وهو يدبرنا في الامر فعاودنا المسير في تلك الرمال ونحن في غاية التعب والمضايقة منها فضلاً عن المضايقة التي تعتري كل نزيل في بلدٍ ليس بها من أبناء وطنهِ أو من يفهم لغته حتى يفرج عنهُ كربتهُ . ولما وصلنا الى المحل الذي نقصدهُ رأينا شاباً وهو ابن ذلك التاجر ويكاد لا يتقن التكلم بالعربية فأجلسنا حتى جاء والدهُ وقدمنا لهُ ولما علم الرجل بطلبنا أشار على ولدهِ بأن يخصص لنا اودة أجرتها الشهرية اثنان جنيه فصعدنا اليها وقد أتت زوجة صاحب المحل واذ هي سورية فاضلة متكلمة ثم وضعنا متاعنا في تلك الاوده الخالية وفرشنا فراشنا الذي لنا وبعد قليل حضر

الينا شاب سوري عليهِ بسيماء التدين مستقيم اسمهُ موسى قزاح فبعد أن حيانا أخذ يحادثنا عن سوء حظهِ لعدم حصولهِ على عمل منذ بضعة أشهر بعد تنقلهِ الى جهات مختلفة وكان يظهر عليهِ الضنك وضيق ذات اليد

وعند المساء دعانا ابن صاحب المنزل لتناول العشاء عندهم والعائلة لا تزيد عن الرجل وزوجتهِ وولدهما . والرجل لا يعرف الكتابة والقراءة ولكنهُ من الغريب يتقن التكلم بلغات كثيرة وهيَ الانجليزية والفرنساوية والبورتغالية والرومية والكفرورية ولغتهُ العربية ويفهم الهندية وشيئاً من الصينية . أما الزوجة والولد فيعرفان الانجليزية حق المعرفة كتابةً وقراءةً وتكلماً ثم يحسنان التكلم بالبورتغالية والكفرورية ويفهمان شيئاً من الفرنساوية وهذا بخلاف اللغة العربية ولقد تأكدنا أن هذا الرجل كان رحل الى هذه البلاد بعائلتهِ الخفيفة الحمل ومعهُ زورقان للتعدية ثم أخذ في أسباب التجارة والمقاولات حتى صارت لهُ أملاك عظيمة هناك ومركب شراعي تجاري كبير وبضع زوارق بخارية وشراعية ومحل تجاري فيهِ أشياء من الملبوسات وكثيرٌ من المشروبات الروحية وهو وولدهُ يباشران الاعمال بهمة لا تعرف الكلل أما الزوجة فتباشر الاعمال الحسابية والكتابية بخلاف تدبير الامور المنزلية وبعد ذلك قصدنا أودتنا ونمنا نوماً ثقيلاً اذ انها الليلة الاولى على البرّ بعد تمضية خمسة عشر يوماً بالبحر

أصبحنا واذا بالغزالة تتلألأ والنسيم العليل يهفهف فينعش الفؤاد وما عهدنا بتلك الارجاء الاَّ التأفف من حرها لوقوعها في المنطقة الحارة فخرجنا نطوف في انحاء البلدة ومعنا ذلك الشاب السوري وعند الظهر ابتعنا خبزاً وسردينًا اذ لا قدرة لنا على التوسع في الاكل بأكثر من ذلك فأكلنا غذاءنا بشهية عظيمة ولا ندري اذا كانت هذه الشهية وُجدت فينا نظراً لتغيير الطقس علينا الذي كان وقتئذٍ

جميلاً أو لحرماننا وقصر يدنا عما هو أفخر من ذلك ثم شربنا ماءً زلالاً صافياً كاد ينسينا عذوبة مياه نيلنا . وهكذا كانت حالتنا قاصرة على الأكل والشرب والنوم والتفسح مدة ثلاثة أيام

أما البلد فواقعةٌ على الدرجة العشرين جنوب خط الاعتدال على شاطئ البحر تماماً ومساحتها لاتزيد عن ثمانية كيلومترات مربعة وأبنيتها متفرقة عن بعضها صحية جداً وكلها من الخشب والتوتيا (الزنك) لعدم وجود محاجر في تلك الجهات وأتربة يعمل منها الآجر وأشكال تلك المباني على الطراز الاوربي الحديث متوفرة فيها شروط الراحة والانس وسقوفها من التوتيا مائلةً على الجانبين وبدوائرها مجارٍ حتى اذا هطلت الامطار نزلت على السطوح وجرت في المجاري وصبت في صهاريج كبيرة جداً مصنوعة من التنك ومنها يشرب أصحاب المنازل . وماءُ المطر قراح نقي لذيذ جداً لا يعرف بعظم لذتهِ الا من أسعدهُ الحظ وتمتع بمذاقهِ

ولما كانت الارض رملية يتعسر فيها المسير عملت الحكومة رصيفاً من قواقع ومحار البحر ومغطى بالاسمنت يمتدّ على طول شوارع البلدة ولا يجوز للعبيد أهالي البلاد ان يمشوا عليه ومن يخالف يضبطهُ رجال البوليس الذين هم من البورتغاليين وقلما يكتفون باشباعهِ رفساً ولكماً دون ان يحبسوه ، وفي وسط الشوارع خطان حديديان ضيقان تجري عليهما العربات المكسحة (اللوري والترولي) الخصوصية لركوب أصحابها ونقل بضائعهم بها من جهة لاخرى وذلك مقابل اشتراك سنوي يدفعهُ صاحب العربة للحكومة

وبهذه المينا جمرك يعد ضربة على التجارة الواردة من بلاد غير بلاد البورتغال فمثلاً كيلو الاحذية يدفع عنه خمسة شلنات واتر الاسبرتو ثلاث شلنات ولذا لا يباع هذا الصنف الاخير في البلدة وأقل ما يدفع يكون باعتبار المائة خمسة وعشرين

بمعنى انهُ اذا وردت لشخص بضاعة قيمتها مائة جنيه كان جمركها (ولا يصح ان أقول عشورها) خمسة وعشرين جنيهاً وأجرة الحانوت الصغير لا تقل عن ثمانية وعشرة جنيهات ، اني أذكر ما شاهدتهُ وعلمتهُ في سنة ١٨٩٩ أما الآن فلا بدَّ أن تكون ضربت ضرائب فادحة على محلات التجارة اذ كانوا شكلوا مجلساً من ولاة الامور والتجار وسنوا لائحة مبدئية وتعريفةً عن الضرائب التي تخصص على كل محل تجاري حسب الاصناف التي تباع فيهِ مقسمة الى ثلاث درجات وأظن ان الحكومة نفذتها من العام الماضي

وعلى ذلك كانت أثمان البضائع على اختلاف أنواعها مرتفعة جداً فمثلاً الكسوة (البدلة) التي تساوي بمصر خمسين فرنكاً لا يقل ثمنها هناك عن مائة فرنك ورباط الرقبة باثنين شلن ولا يباع بمصر باكثر من نصف شلن وقد اشتريت مرة قميصين بجنيه ومثلها لا يباع بمصر باكثر من ثمانية فرنكات ومع كلٍّ فالملبوسات لا تعتبر أثمانها غالية بالنسبة لغيرها

والمشروبات من مثل البراندي والجن والابسنت والوسكي الخ يباع الكأس منها في بعض المحالّ بشلن وبعضها بنصف شلن وزجاجة البيرة باثنين شلن ونصف

والمأكولات أغلبها من اللحوم والبقول المحفوظة أو المملحة الواردة من الخارج وهذه لا تزيد أثمانها كثيرًا عن أثمانها بمصر أما اللحم البقري (وهو وارد مدغسكر) فالكيلو منهُ من ثلاثة الى اثنين شلن بحسب نوع اللحم الذي يرغبهُ المشتري والكيلو من لحم الغزلان على أنواعها وبقر وجاموس الوحش (البوفالو) وحلوف البر فمن اثنين شلن الى شلن ونصف ولحوم الصيد هذه لها فضل كبير على البلاد وهي غريضة ولكنها لا تحوي شيئاً كثيرًا من الدسم ما عدا الحلوف ومع ان الدجاج لا يعيش كثيرًا هناك الا انهُ رخيص فالواحدة منهُ بشلن ونصف

أما البيض فكنت أود عدم ذكره لاني ناقم عليهِ لحرماني منهُ ذلك ان الاثنتي عشر بيضة لا يقل ثمنها عن خمسة شلنات وتارة يرتفع الى ستة بمعنى ان ثمن البيضة الواحدة نحو غرشين صاغاً الى غرشين ونصف ولذلك لا يوجدهذا الصنف عادة الا على موائد الكبار والذوات

والخضارات نادرة الوجود وقد كان يرد منها القليل من جهات بعيدة ، اتفق اننا رأينا عند بائع خضارات خيارتين ذابلتين وربطة فجل صغيرة وبعد الاستفهام علمنا ان ثمن الخيارتين شلن وحزمة الفجل نصف شلن فوليناهُ شطر ظهورنا وتعوّذنا بالله وأقسمنا الاّ حرمنا أنفسنا من هذين « الدرياقين » ببلاد كان بها ثمن الفجل والخيار هكذا

وقد يستغرب القارئ لعدم معرفتهِ للآن موارد الكسب والارتزاق في هذا البلد القفر اذ قد رأى مما تقدم انها ليست زراعية ولا صناعية ولا تجارية على ان الحقيقة ان هذه هي المينا الوحيدة الموصلة الى مستعمرة سالسبوري البريطانية بواسطة خط حديدي يمتد منها ويمرّ على نقط بها معادن ذهبية مثل « مسا كيسه » وغيرها وهذا الخط عبارة عن فرع من سكة حديد (نابوليون افريقيا) سسل رودس المشهور الممتدة من مدينة رأس الرجاء الصالح المقال عنها انها ستتصل يوماً ما بسكة الخرطوم فالقاهرة وكل آتٍ قريب

أما الآن وقد علمتَ ذلك فوجود الاجنبي بتلك الجهات إما للاستخدام في الاعمال الكتابية أو الادارية لدى الشركات والسكة الحديد والمعادن وإما أن يكون ذا صناعة كنجارٍ أو برّاد وسوق أصحاب الصنايع رائجة جداً فالصانع النجار لا تقل أجرة يومهِ عن خمسة عشر شلناً والبرّاد أو الخراط (الميكانيكي) من جنيه الى أكثر وإما للاتجار الذي فيهِ كل الربح ، كما ان الخادم (الجارسون)

في الفندق أو العامل في محل تجاري تبلغ أجرتهُ شهريًا ما بين خمسة عشر الى عشرين جنيهًا واذ عرفت ذلك يتأكد لك قدر الربح الذي تربحهُ مثل هذه المحالّ وانك موجود في بلاد الذهب

ولما كنت بتلك الجهات كان لا يزيد عدد الاجانب بها عن ألفي نفر ما بين بورتغاليين وبريطانيين وفرنساويين وايتاليين ويونان وهنود وخمسة سوريين وثلاثة مصريين

ولقد يستغرب القارئ من قولي ثلاثة مصريين اذ المعلوم لديه اني أنا وزميلي فقط ، فمن أين هذا الثالث يا ترى ؟ نعم هو رجل يدعى سليم وهو أميٌّ وأصلهُ من ناحية الاهرام وقد كان توجه الى السويس من بضع سنوات ومنها ركب احدى البواخر بدون أجرة فاشتغل في تقديم الفحم ثم صار يتنقل من بلد الى أخرى في شرق افريقيا وكان تارةً يستخدم وقادًا (عطشجي) بالسكة الحديدية وأخرى بمراكب البحر وما أشبه ومعدل ما يكتسبهُ شهريًا خمسة عشر جنيهًا وهو راضٍ بعيشته تمام الرضاء ولقد فرحنا عند ما رأيناهُ يكلمنا فجأةً بلغة بلادنا خصوصًا بلهجة أولاد البلد المضحكة وهو الآن يتكلم الانجليزية والكفرورية وشيئًا من البورتغالية ويلوح لي من كراهة هذا الرجل لوطنه انهُ ارتكب جرمًا في بلاده ألجأهُ للهرب والاختفاء من وجه القانون والله أعلم بالحقيقة

أما الاهالي الاصليون فهم عبيد همج لا يدرون شيئًا من الكون سوى انهم يأكلون وينامون وغذاؤهم الآن الارز المبلول بالماء البارد أو الساخن دون شيء آخر ثم لحوم الصيد مهما كان نوعها التي يشوونها شيًا ويتلذذون بأكل ما كان منتنًا منها وهم يعافون أطعمة البيض واذا أكلوا منها قليلًا مشت طبيعتهم وصورتهم في الذكور أحلى منها في الاناث ويستخدمهم الاجانب في قضاء حاجاتهم الحقيرة واذا

خدم الواحد منهم شهرًا يكلّ ويملّ الخدمة فيترك محل خدمتهِ اما علنًا أو خفيةً والارجح الاخير ويذهب الى حيث أقاربهُ في الغابات وهناك يواصل ليلهُ بنهارهِ في النوم والتمدّد مكتفيًا بتدخين بعض أوراق من شجرٍ معلوم عندهم أو يستعملونهُ بصفة سعوط واذا اشتدّ عليهِ الجوع ينام على بطنهِ، وهم عراة حفاة لا يسترون من أبدانهم سوى سوآتهم. ومن المضحك أن الواحد منهم اذا خدم شهرًا أخذ أجرتهُ عند آخر الشهر وقيمتها نحو عشرة أو خمسة عشر شلنًا ويذهب الى المحالّ التجارية الصغيرة وينتقي لهُ قبعة (برنيطة) فيكون عاري البدن حافي القدم وعلى رأسهِ برنيطة بنحو نصف جنيه أو اكثر أو أقل واما يبتاع بها موسيقة أو سكينًا أو قميصًا أو شيئًا من السوار أو الحجال من نحاس أو حديد ولبس هذين محتّم عليهم وقد أخذ الاجانب يقلدون أولئك العبيد في لبسهم السوار في المعصم، ومنهم المولعون بشرب الخمر كالجن والبراندي والنبيذ حتى ان العبد يقصد احدى الحانات المخصصة للعبيد ويشرب بكل ما تملكهُ يده في برهةٍ من الزمن وما ذلك كلهُ الاّ لانهم لا يعرفون ماذا يعملون بالدراهم فهم لا يطيقون الملابس على أجسادهم ولا الاحذية في أرجلهم وغذاؤهم من لدن مخدوميهم وما دام الامر كذلك فالدراهم ليست ضرورية عندهم ولقد تعب المرسلون في تربية القليل منهم ولكن ذهبت اتعابهم ادراج الرياح

ولغتهم عبارة عن خليط من لغتهم الهمجية وألفاظ هولاندية وانجليزية محرفة عن اللفظ الحقيقي ومن باب التفكهِ أذكر بعض ألفاظ منها : فمثلاً (بو يالا پا) تعالَ هنا (هامبا) اذهب (موشله) حسن وتفيد أنواع المدح (موزنجو) الرئيس أو الابيض (كايه) البلد أو المكتب أو المنزل (آيكونا موشله) رديء وتتضمن كل الذم (زُوَا) الشمس (امفورو) المطر (مانزي) الماء (باس) سيدي (فوتساك) امشِ وتفيد الطرد (كوكيزاتي) اعمل الشاي (موني) صباح الخير أو مساء

الخير الخ فالكلمتان الاخيرتان محرفتان عن الانجليزية واللتان قبلهما عن الهولاندية ،
وكما علمت أثناء وجودي بزنجبار ان لغة كفروريا منها شيء من لغة زنجبار
فيستنتج من ذلك ان لغة التفاهم في بلاد كفروريا وموزانبيق وزنجبار وتقريباً كل
سواحل أفريقيا الشرقية الجنوبية كانت واحدة ثم طرأ عليها اختلافات وتحريف
حتى صار يصعب على الزنجباري أن يفهم الكفروري وما أشبه

أما الطقس فعلى قسمين من اكتوبر الى مارس يكون الحر شديداً والامطار
تهطل بدرجة هائلة ثم من ابريل الى سبتمبر يكون الطقس لطيفاً بارداً ويندر في
هذه المدة نزول الامطار

والعملة السائرة في الحكومة هناك هيَ العملة البورتغالية واكبرها قطعة من
الفضة تسمى (كينيتو) تزيد قليلاً عن نصف الريال المصري وتتجزأ الى نحو
ستمائة جزء يسمى ريس وكل مائتين ريس تساوي فرنكاً تقريباً وحساب صرفها
بعملةٍ أخرى مختل جداً فتارة يصرف الجنيه بعشرة كينيتو وأخرى باثنى عشر
ولذلك فالتجار يفضلون العملة الانجليزية وهيَ الجنيه والشلن وأجزاؤهما وكذلك
العملة الترنسفالية (قبل الحرب) وقيمتها كقيمة الانجليزية تماماً الاَّ ان عليها من وجهٍ
صورة الرئيس كروجر ومن وجهٍ آخر الشعار الترنسفالي وثلاث كلمات بالهولاندية
وتعريبها « بالاتحاد تكون السعادة »

وهناك مصرف (بنك) كبير انجليزي للحوالات واستبدال النقود بورق وبالعكس

والآن اكتفي بما ذكرتهُ عن بايرا وما بها ومَن بها وأعود لحالتنا (أنا وزميلي)
فاننا بعد أن لبثنا نحو أربعة أيام قدَّمنا الخواجه رزق الله جبور الى مأمور ادارة
السكة الحديد فطلبنا منهُ أن يوظفنا ضمن نظار أو معاوني المحطات لعلمنا بقدرتنا
على هذا العمل ولكنهُ رأى عدم امكان ذلك ومعهُ الحق اذ لا يقال ان مصرياً

يستطيع القيام بعمل ناظر أو معاون محطة في سكة حديد انجليزية عملها وعمالها وركابها ودفاترها بالانجليزية ومن الانجليز، فعرض علينا وظائف كومسارية فلم تقبل زعماً منا اننا نجد أشغالاً أحسن منها في ذات الشركة أو بعيداً عنها وأخيراً أخبرناهُ اننا ندري فنّ التلغراف فأمر بامتحاننا وبالاسف رأى اننا أقلّ قوةً وسرعةً من التلغرافجية البريطانيين خصوصاً لعدم المامنا باختصارات الالفاظ الكثيرة وعلى ذلك عدنا من لديهِ بخفيّ حنين، وبعد يومين نفدت ماليتنا ولم يتبقَّ لدينا سوى شلن واحد فضننا بهِ على أنفسنا ونمنا ليلتنا نسامر النجم وفي الصباح لم نقوَ على الجوع فابتعنا بهِ خبزاً واكلنا نصفهُ وفي الظهر اكلنا الباقي وفي الليل نمنا كالليلة الماضية، وفي اليوم التالي رأينا أن نطلب من الخواجه رزق الله أن يقرضنا شيئاً ولما كنا في غاية الخجل اقترعنا من منا الذي يقصدهُ فأصابتني القرعة ولما ذهبتُ اليهِ بثثتُ اليهِ حالتنا وأطلعتهُ على سرّائنا وضرّائنا وبعد كلامٍ طويل كانت النتيجة عدم اجابة الطلب وأيدت رفضهُ زوجتهُ الفاضلة بحجة ان حركة الاشغال واقفة وكيت وكيت، وعند العصر دعونا الشاب السوري وبعد أن سارّرناهُ سلمنا لهُ ساعتي وخاتماً كان في أصبع زميلي لرهنهما على أي مبلغ حتى نسد رمقنا وبعد ساعةٍ عاد الينا وناولنا جنيهاً فارتأى زميلي أن نأكل اكلةً فاخرةً تعوّض علينا ما فقدناهُ بالجوع فاشترينا كيلو من اللحم وأدخلناهُ التنور ثم أخذناهُ الى أودتنا وصرنا ننهشهُ نهش الكواسر لا تأخذنا عليهِ رحمةٌ حتى التهمنا نصفهُ وأبقينا النصف الآخر الى اليوم التالي

ثم قصدنا مأمور الادارة وأخبرناهُ اننا قابلون وظائف كومسارية فأجابنا انهُ سينظر في الامر عند عودة المدير العمومي من السفر في هذا الاسبوع، ومع اننا كنا مقتصدين جداً في الأكل بمعنى اننا لا نأكل سوى خبز وجبنة أو زيتون

من ذلك الجنيه (بعد تلك الاكلة التي هاضت الآكل وأخرمته مآكل) . الا أنهُ بعد مضيّ ثلاثة أيام لم يتبقّ منهُ سوى شلن واحد و بعد اعمال الفكرة في صرفهِ استصوبنا أن نشتري بهِ دخاناً اتباعاً لقول من قال . ان التدخين مشبع (وأظنهُ الدكتور الصليبي الذي كان ذكر ذلك ضمن رسالةٍ لهُ عن مضار التدخين وفوائدهِ دُرجت بالمقتطف منذ نيف وعشر سنوات على ما أتذكر) وعليهِ اكتفينا بالتدخين وشرب الماء سحابة يومين أُصبنا في الثاني منهما باسهالٍ شديد حتى اننا أصبحنا في اليوم الثالث ولا قدرة لنا أن نبدي حراكاً فكنا نشخص الى السماء بوجوهٍ شاحبة وأعينٍ غائرة وأنفاسٍ متقطعة ونقول : لماذا تخليت عنا يا ألله : وعند الظهر تذكرنا رجلاً سوريّاً يبيع سلعاً في الطريق واسمهُ الخواجه أمين أبو فهد فقلنا ربما ان هذا الرجل تأخذهُ الرأفة ويقرضنا ما في استطاعتهِ فأرسلنا في طلبهِ وبعد قليلٍ حضر الينا وبينما نحن نبسط لهُ أمرنا بالخيط والابرة قاطعنا الحديث لشدّة تأثرهِ وأفرغ بين أيدينا كل ما كان بجيبهِ واذ هو أربعة جنيهات وقال : خذا هذا المبلغ الآن وسأحضر لكما اثنين جنيه آخرين . عند ذلك تلعثمت ألسنتنا ولم نستطع أن نفوه ببنت شفةٍ حتى ولا بكلمة شكرٍ لهذا الكريم . أما هو فذهب توّاً الى منزلهِ وعاد مسرعاً وبيدهِ الاثنان جنيه ولقد كنا نودّ من كل قلوبنا أن نعانق ذلك الرجل الاميّ الفاضل على فرط حنوّهِ الذي لم نجدهُ في غيرهِ صاحب الآلاف مع انه لم يكن يملك سوى ما أقرضنا اياهُ ، ولكن غريب كرمهِ أشلّ أيدينا وعظم سخائهِ أخرس ألسنتنا

وفي اليوم التالي الموافق ١٢ يونيه سنة ٩٩ أرسل مأمور الادارة في طلبنا ولما مثلنا بين يديهِ قال لنا انكما قبلتما وظائف كومسارية وعلى ذلك سأعينكما ولكن اعلما ان الاشغال خشنة صعبة جدّاً بدرجةٍ تفوق تصوّركما وان مسؤوليتكما عظيمة ومن

يهمل في أشغالهِ يطرد خارجاً ولا يكون لهُ حق المطالبة باستحقاقهِ وان نتج عن اهمالهِ ما يضرُّ بصالح الشركة فلا بدَّ من سجنهِ في سجن الحكومة المحلية فهل وعيتما ما أقول ؟ ووالله كدنا أن نتردَّد الاَّ اننا لما تذكرنا ما حلَّ بنا من الضيق أجبناهُ بالقبول وعندئذٍ دوَّن سكرتيرهُ عنوان عائلة كلٍّ منا (لتعريفها عند وقوع القضاء المبرم وانقضاء الاجل) وبعد أن حرَّر لنا جوابيْ التعيين برسم ناظر محطة القسم الواقع في وسط الخط أخبرنا ان ماهية كلٍّ منا عشرون جنيهاً ثم سلم لنا تذكرتين للسفر في نفس اليوم الى مركز أعمالنا وعلى ذلك كانت مدة وجودنا في بايرا نحو أربعة وعشرين يوماً لم نعمل في أثنائها عملاً أو نكتسب درهماً



صاحب السياحة ما بين جيبوتي وأبايرا

الفصل السادس

الاستخدام في السكة الحديد ووصف العمل وصعوباته

عند الساعة السابعة ونصف من مساء ذلك اليوم توجهنا الى محطة بايرا ومعنا متاعنا ولما استعدّ القطار ركبنا وسافرنا عند الساعة الثامنة ونصف مساءً وبعد مسيرة نحو نصف ساعة وقف القطار في نقطةٍ لم تكن محطة بل بها صهريج مياهٍ فأخذت القاطرة كفايتها منها وعاودت المسير وبعد نصف ساعةٍ وقفنا ولما مددنا أبصارنا من النافذة لم نرَ سوى أشجار وحشائش لان الظلام الحالك لم يمكنا من رؤية المحطة ففضلنا النوم ونحن في مقاعدنا اذ لا فائدة من بقائنا على يقظةٍ ومن شدة ارتجاج القطار كنا نستيقظ تارة وننام أو نتناوم أخرى

وفي الساعة الثالثة ونصف صباحاً وقف القطار على محطة بامبوكريك وهي المحطة المركزية التي نقصدها ولشدة الظلام لم نعرف اذا كانت مكاتب المحطة على يميننا أم يسارنا فصرنا نتلمس ونصطدم في أشجار الموز ونتعثر في قطع خشب حتى اهتدينا الى المكتب فرأينا هناك عاملاً وبعد أن سلمناهُ جوابينا وتذكرتينا سألناهُ أن يتكرّم علينا بارسال أحد الخفراء لنقل متاعنا من القطار الى حيث نقضي بقية الليل فما كان منهُ الاَّ أن قابل كلامنا بالضحك والاستغراب وأخيراً أجابنا بعدم وجود من يحمل لنا أمتعتنا فاضطررنا الى حملها بأنفسنا معوّلين على ايقاد بعض عيدانٍ من الكبريت لاهتدائنا الى الطريق وبعد قليل حضر ناظر المحطة وأوصلنا الى أودةٍ فوضعنا بها أمتعتنا وتربعنا بجانبها حتى الصباح ولما أشرقت الشمس قصدنا الناظر فأرشدنا الى مستودع أسرَّة قوائمها من خشب وسطحها من خيش

فانتقينا اثنين ونقلناهما الى أودتنا ثم كتب الناظر تذكرة لصاحب (الكانتين) باعتمادنا ضمن العمال واعطائنا ما نريده من مأكل ومشرب وملبس مقابل ايصال منا بقيمة ما نأخذه وعند الظهر دخلنا ذلك الكانتين وأكلنا وعلمنا ان ثمن الاكلة الواحدة شلنان ونصف ثم أخذنا نجول في ساحة المحطة التي لا تقل في الاتساع عن ميدان عابدين واذ هي عبارة عن مكتبين للمحطة والتلغراف (كل الابنية بالخشب والزنك كما في بايرا) وثلاثة صفوف من الاود يبلغ مجموعها نحو خمسة وأربعين أودة يتخيل لناظرها انها ثكنة عساكر وكل أودة بها نفران كلها للكومسارية والسواقين والعطشجية والبرادين وغيرهم ثم منزل على حدة للناظر وملاحظ الوابورات والتلغرافجي ثم مظلة للعنابر وورشة الوابورات ومخزن كبير للمهمات والادوات والارز وعلى بعدٍ من هذه الابنية الكانتين وهو متسعٌ جداً وبهِ أودة المائدة تكفي لجلوس أربعين شخصاً وبها بيانو عمومي لكل من يدري اللعب عليهِ ثم قاعة كبيرة للشرب (وقوفاً على البنك) وبها بلياردو كبير وثلاث غرف للنوم ومحالّ للعمال وما أشبه وبهِ المشروبات كافة وتصنع فيهِ أطعمة تكفي أربعين أو خمسين شخصاً وهيَ من البطاطس والفاصولية ولحومات الصيد والعصيدة الانجليزية (البودنج) بخلاف أصناف المحفوظات الكثيرة ثم أصناف من اللزوميات الاخرى مثل أحذية وملابس تيل وأدوات شاي وكل ماهو ضروريٌّ لمثل هؤلاء العمال . وعلى بُعد رمية حجر من الكانتين يوجد محلاً بضائع لتجار هنود وآخران للمشروبات فمكتب البوسطة ثم منزل قومندان الجهة البورتغالي وبجانبهِ محلٌّ للسجن وهذا كل مافي محطة بامبوكريك المركزية الواقعة في وسط الغابات تكتنفها الحشائش والاشجار من كل صوب وقد أمضينا اليومين الاولين في مباشرة حاجاتنا الخصوصية على انفرادٍ دون تأدية عمل مصلحيّ

وعند فجر اليوم الثالث أتى المنبه وأيقظنا وقمنا في الحال الى المحطة فأخبرنا الناظر أن نسافر بالقطار الذي كان على أهبة السفر للتمرين على الطريق والعمل وسلم لكلٍّ منا نسخة من اللائحة فما كان منا الاَّ أن ركبنا مع الكومساري بالسبنسه وتحرّك القطار وأخذنا نتفرّج على الطريق التي أعجبتنا لكونها كلها أشجارًا وحشائش ملتفة وما لبثنا قليلاً حتى شعرنا بانقباض ، ذلك لاننا كلما مددنا البصر لا نرى على مداهُ الاَّ آكاماً ووهادًا تغطيها الاشجار والحشائش المتراكمة ببعضها بهيئةٍ تخيف الانسان بمجرَّد النظر اليها و بعد مضي اكثر من ساعةٍ ونصف وقفنا على أوّل محطة واذا هيَ بناءٌ صغير (من الخشب والزنك) وبها ناظر وخادمهُ فقلنا يا لله من هذه الوحدة في مثل هذه الغابة المقفرة حيث لا أنيس لذلك العامل سوى الضواري والجوارح وأيُّ فرقٍ بين الحياةِ هنا ومنفى سيبيريا

و بعد أن غاد القطر الى كرّهِ وفرّهِ أخذنا نستعلم من الكومساري (واسمهُ هندرسن) عن طول هذا الخط ومتى يكون وصولنا الى المحطة المركزية الاخرى التي هيَ آخر حدود قسمنا فعلمنا ان طول الخط نحو مائتين وثمانين ميلاً وهو ينقسم الى ثلاثة أقسام أولاً من بايرا الى بامبوكريك التي هي محطة قيامنا وثانياً من هذه الى مانديجس التي هي نقطة وصولنا وثالثاً من هذه الى أمطالي ، أما وصولنا الى محطتنا الانتهائية فيكون قبل الغروب فنبيت هناك ونعود منها في الغد ونصل بامبوكريك قبل المساء. عند ذلك علا وجوهنا الاصفرار وبدت علينا علائم الكدر اذ كما لا يخفى اننا قمنا على عجل من بامبوكريك ونحن نزعم اننا نعود اليها في نفس اليوم وعلى ذلك لم نحمل معنا زادًا ولا غطاءً نتقي بهِ شرّ برد الليل فلما علم الكومساري بذلك دعانا عند الغذاء للاشتراك معهُ ولعلمنا ان ما معهُ هو على قدر حاجتهِ في الطريق امتنعنا بحجة الشبع والسلام. وكان القطار يخترق تلك الغابات

فتارة يعلو على قمم الآكام وأخرى يهوي بنا الى اعماق الوهاد ثم ينساب في المنحنيات يمنة ويسرة انسياب الافعوان حتى قبل الغروب وصلنا الى مانديجس وقد أعيانا التعب والجوع

علم القارئ ان الطريق مقفرة جداً وانها عبارة عن غابات وأحراش يكاد لا يكون بها شبر واحد من الارض خلواً من الحشائش والاشجار خلاف الجزء الممتد عليهِ الخط الحديدي كما انها ليست بسهول بل هي مجموع تلال وجبال ووهاد وليس هذا كل الذي أريد ان أقوله انما أذكر أيضاً اننا منذ قيامنا من بامبوكريك لوصولنا الى مانديجس بعد مسافة نحو احدى عشرة ساعة لم يقع نظرنا على آدميين سوى عمال المحطات والقطارات التي كانت تتقابل معنا في الطريق وقليل من العبيد التابعين لاعمال وعمال السكة وبخلاف ذلك فان المحطات التي مررنا عليها لا تزيد عن ثمانية ، أربعة بكل منها ناظر والاربعة الاخرى ليس بها أحد من العمال ، والاربع محطات هذه الخالية ليست متوالية بل محطة بها عمال والتالية ليس بها وهكذا . وهذا من باب الاقتصاد في العمال

ولما كنت من عمال السكة الحديد المصرية سابقاً أرى من الواجب عليَّ أن أبين فائدة تلك المحطات الخالية من العمال وكيفية ما يكون بها فأقول ، ان الغرض منها مقابلة القطارات الطالعة والنازلة بها عند اللزوم ويتفق ان يتقابل بواحدة منها أربعة أو خمسة قطارات طالعة مع مثلها نازلة (أقول هذا وأشعر ان أغلب عمال السكة الحديد المصرية يستغربون وربما يضحكون عند القول بأن ثمانية قطارات أو عشرة تتقابل ببعضها بمحطة ليس بها عامل واحد حتى ولا مفتاحجي) على ان الامر بسيط جداً ولتقريبهِ للتصوّر أضرب مثلاً لذلك :

ان محطتي بولاق الدكرور والحوامدية بكل منهما عمال ومحطة الجيزة بينهما

وليس بها عمال فاذا ترآى لناظري تينك المحطتين لزوم مقابلة قطاراتهما بالجيزة يتبادلان الاشارات التلغرافية فاذا اتفقا مع بعضهما يقوم مثلاً القطار الاول من بولاق بأمر سفرية الى الجيزة ويخزن بها وهكذا القطار الثاني خلفه والثالث الى الاخير الذي يعطى الى كومساريه أوامر سفرية بقدر عدد القطارات النازلة من الحوامدية حتى بوصوله الى الجيزة يسلم لكل قطار أمر سفريتهِ الاول فالاول والعمل نفسهُ الذي عملهُ ناظر بولاق يعملهُ ناظر الحوامدية مع القطارات القائمة من محطتهِ وعلى ذلك تتقابل القطارات الطالعة من بولاق مع النازلة من الحوامدية بمحطة الجيزة وهناك يكون الكومسارية مسؤولين عن تحويل المفاتيح وتخزين القطارات وسلامتها . والطريقة وان كانت في غاية البساطة الا ان كل كومساري يلزمهُ دقة الالتفات والنشاط خصوصاً اذا كانت مخازن الجيزة ضيقة اذ تكون القطارات عند مقابلتها مع بعضها واقفة على فدو السكك والمفاتيح والخط الطوالي

وربَّ مفكر يقول لماذا لا تكون هذه الطريقة في مصلحة السكة الحديد المصرية حتى يتوفر كثير من عمالها ولكن عفواً كيف يكون ذلك ومحطة الجيزة أو خلافها لم تفتح الا لنقل الركاب والبضائع فلا بدَّ من وجود عمال بها لصرف التذاكر والتخليص على البضائع وغير ذلك أما سكة حديد بايرا فهي نوع آخر لانها على مدى امتداد خطها لا تنقل ركاباً أو بضائع من والى المحطات المتوسطة الا من بايرا لامطالي وبالعكس لانها ممتدة بين جبال وغابات معمورة بالعبيد الهمج فقط وهذا فضلاً عن ان تلك الطريقة التي شرحتها كثيراً ما يتسبب عنها تأخير كبير للقطارات . فهي لا تفيد بالكلية في سكة حديد منتظمة تجري عليها قطارات اكسبريس وركاب وبضائع بدرجة عظيمة كالسكة الحديد المصرية

ولما نزلنا من القطار دوَّنا حسب ارشاد كومسارينا اسماءنا بدفتر مخصوص

وتاريخ وساعة الوصول ونمرة القطار وبأننا انتهينا من الوردية وامام أسمائنا نمرة الاودة التي سنبيت بها حتى عند اللزوم يطلبنا الناظر أو المنبه من أودتنا دون أن يتساءل عنا فيقلق راحة غيرنا أما درجة عمران محطة مانديجس فأقل من بامبوكريك نوعاً

وما أتت الساعة السابعة مساءً الاّ وكنا في الكانتين فتعشينا مع زملائنا الكثيرين ثم ابتعنا بعض مأكولات لليوم التالي وبعد التمشي قليلاً قصدنا أودتنا الخالية الخاوية فتمدد كل منا على سريرهِ العاري عن كل شيءٍ وعند نصف الليل اشتدَّ البرد والصقيع حتى اننا لم نستطع النوم أو التمدد فجلسنا القرفصاء ونحن نتأفف من ذلك البرد القارس المهلك وقد كدنا ان نبكي مثل الصغار لفرط ما نقاسيهِ لولا ان وجود اثنين مع بعضهما مشتركين في الالم مما يشجع النفس على احتمال الشدائد

وعند السحر سافرنا ووصلنا بامبوكريك قبل الغروب ولما كنا تعلمنا ما يجب على المستخدم أن يحملهُ معهُ عند السفر أخذنا نهيئ ما يلزم أن يكون مع كل عامل في السفر فكان هكذا : صندوق صغير بهِ المأكولات مثل قطعة خبز وعلب محفوظات من لحم وبسلة ومربة ولبن وشاي وسكر وملح وفلفل وزجاجة للماء وأدوات الاكل كالشوكة والسكين والملعقة ومفتاح للعلب وقدح وعدة شاي وصحنين وأدوات التدخين وأغلب الادوات من الصاج المطلي حتى تتحمل النقل ثم ربطة فراش وهذا الحمل بخلاف الادوات المصلحية التي هي فانوس كبير يوضع خلف القطار وفانوس اشارة لليد واشارتان خضراء وحمراء والاوراق والمكاتبات والطرود التي من المحطات الى بعضها وهذه لم يكن لها كيس أو صندوق لوضعها بهِ ومن تكرار اتلافها من حريقها بالنار وبللها بالامطار كما سيرد أعطت الشركة فيما بعد صندوقاً كبيراً لكل كومساري لا يقوى على حملهِ نفر واحد خصوصاً اذا كان مشحوناً

وكل ماذكر هو مايحمله الكومساري معهُ عند قيامهِ بالقطار

وأرى من الضروري أن أصف بعض الشيء قبل أن آتي على ذكر قيامي عاملاً بأحد القطارات حتى يتصوّر القارئ متاعب العمل وعظم المسؤولية التي على العامل

لما كان الخط ممتداً على مرتفعات وانخفاضات ومنحنيات فالوابور لا يقدر أن يجرّ وراءهُ اكثر من خمس عربات مشحونة أو ثمانية فارغة واذا كان هذا كل القطار فلا يقال اذن بضرورة وجود سبنسه خلف القطار لاقامة الكومساري بها دون فائدة أخرى (حسب الاصول في السكك الحديدية) لاسيما وان أغلب العربات بها فرامل للرباط عند الاقتضاء وانما يراعى ان القطار لا يكون كلهُ من العربات الصاج (الخزنة المقفولة) لانهُ اذا كان كذلك فلا يكون محلّ لجلوس الكومساري بل لابدَّ من وجود عربة مكشوفة بكل قطر سواء كانت بدائر أو سطح وهذه تكون مشحونة فحماً أو أخشاباً أو صناديق أو قضبان حديد أو ما شا كل ذلك وعليها يتربع الكومساري وامامهُ متاعهُ وأدواتهُ وغيرها . وليس وقود الوابورات من الفحم حسب المعلوم لانهُ يتكلف مصاريف طائلة لتوصيلهِ لتلك الجهات انما هو من خشب أشجار هذه الغابات الذي يقطعهُ المتعهدون قطعاً مستطيلة منتظمة ويوردونهُ للشركة (وهذا العمل قد ربح منهُ كثيرون ربحاً هائلاً) وعند ابتداء توليع الوابور أو سقوط نفسهِ يوضع قليل من الفحم مع الخشب وهذه الاخشاب مقطوعة ومرصوصة في جملة نقط على حافة الطريق حتى اذا لزم منها لوابور وقف في وسط المسافة وأخذ كفايتهُ فلخفة ثقل الخشب النوعي عن الفحم خصوصاً بعد اشتعالهِ تتطاير أجزاؤهُ من قوة ضرب البخار العادم فتقذف المدخنة منهُ شيئاً كثيراً على ما وراءها وليس وراءها سوى عربات البضائع والكومساري كما قدمنا

وبسبب المنحنيات الحادة لا يكتفي بقطر العربات ببعضها بالسلاسل بل خوفاً

من خروجها عن الشريط عند تغيير اتجاه حركتها عند المنحني يوضع خطاف من حديد بين تصادمي العربتين (العربة لها تصادم واحد في كل طرف) وبما ان هذا الخطاف نقالي فيشبك في كل تصادم بمسمار مخصوص لهُ وبذا تكون العربات مرتبطة ببعضها رباطًا يأمن بهِ الكومساري المسؤول عن هذه العملية من سقوطها كما وانهُ يلزمهُ ملاحظة وجود شحم بعلب محاور العجلات (كراسي الدناجل) خوفًا من حصول حرارة نتيجة الاحتكاك من المسير

وأيضًا على ذلك العامل المسكين أن يباشر ربط وحلّ الفرملة شيئًا فشيئًا من آنٍ الى آخر لتثبيت العجلات على الخط ولزيادة الامن من عدم خروجها . كل ذلك غير واجبات أخرى ربما وردت فيما بعد ضمنًا في أقوالي الآتية

ففي غروب اليوم السادس من وجودنا بيامبوكريك بينما كنت أتمشى مع زميلي قبل أوان العشاء طلبني ناظر المحطة وأخبرني بالاستعداد للسفر بعد عشرة دقائق بقطار مخصوص بسوّاحين قادمين من بايرا لم يكن في الحسبان قيامه هذه الليلة ، فوالله ما كنتُ أدري ماذا أعمل في تلك اللحظة أأحضر أمتعتي التي هيَ زادي الثقيل وفراشي وأدواتي المصلحية أم ألتفت للقطار والاجراآت التي يجب عليّ عملها بهِ فما كان من زميلي الاّ انهُ أسرع وأحضر أمتعتي وأخذت في مباشرة تثبيت مسامير القطاير والكشف على كراسي الشحم وتوليع فانوس مؤخرة القطر ثم ارتبكتُ في وضعهِ اذ لا محل لهُ بالمرة وأخيرًا لم أجد سوى ربطهِ بتصادم السبنسه (التي كانت بالقطر لحسن حظي) وبعدئذٍ تحولت للناظر لأتلقى منهُ التعليمات فعند ذلك أمرني بتوليع فوانيس العربات فصعدت فوق سطحها بعد عناء شديد لعدم خبرتي بمثل هذا التسلق ثم صرت أجرب كيف يوقد الفانوس حتى أزف الوقت . وخوفًا من القول بعدم معرفتي ايقاد الفوانيس احتججتُ بان الهواء شديد واني كلما أوقدت عودًا من

الكبريت ينطفىء فما كان من الناظر الا أن علا على سطح العربات وأراني كيف توقد تلك الفوانيس فشكرته ، وتحرك القطار يطوي القفار

وبعد قليل ظهر القمر وأرسل أشعته الساطعة على تلك الارجاء السائد عليها السكون وليس سكون الليل فقط بل سكون الوحشة حيث لا يسمع فيها سوى حفيف الاشجار ونقيق الضفادع بل حيث تصدع الآذان زمجرة ملك الغابة ونباح النمر وعواء ابن آوى وخوار بقر الوحش وقباع الحلوف البرّي نعم حيث ترعى الغزلان أسرابًا والحمير الوحشية قطعانًا فتفاجئها أُسد الغابة وضواريها وتبدد شملها وتطاردها وتمزّق ما يقع فيها بين مخالبها كل ممزّق هنالك يفتك القويُّ بالضعيف ولا شرائع تنهاهُ وتعاقبهُ ولا رادع يردعهُ ؛ أجل فبذا قضت الطبيعة ولا مردَّ لقضائها أحسنتْ أم أساءتْ

وبعد نحو ساعة وقف القطار عند صهريج حتى يأخذ مياهًا فنزل بعض القوم للوقوف قليلاً والتمتع بضوء القمر ثم عادوا لمقاعدهم وتحرّك القطار فبينما أنا أطلُّ من النافذة وبيدي فانوس الاشارة الموجهُ للسائق اذ لمحت كلبًا يعدو وراء القطار وعرفت انهُ كلب المسافرين فقلت في نفسي يا لله لولم يكن هذا الكلب عزيزًا لدى صاحبهِ لما أحضرهُ معهُ من بلادهِ وكلفهُ ما كلفهُ من المصاريف والتعب واذا كان الامر كذلك فهو سيشكوني وربما أطرد ضحية هذا الحيوان وبعد أن عزمت على ايقاف القطار اختفى الكلب عن بصري فعلمتُ انهُ لم يستطع اللحاق بالقطار وافتكرت اني اذا أوقفت القطار فلا يكلف أحدٌ سوايَ بالبحث عنهُ وربما أذهب فريسةً للوحوش فأكون كالباحث عن حتفهِ بظلفهِ فلم يسعني الاَّ العدول عن فكرتي هذه وقد كنتُ أنتظر انهُ لدى وصولنا لاوَّل محطة تعرض قضية الكلب على الناظر وطبعًا يصيبني من جراء حرقة صاحبهِ على فراقهِ بعض السباب والشتائم لان غطرسة الانجليز

عرفتها كل الامم الاخرى ولكن ولله الحمد لم يصدق فألي اذ أن القوم ناموا وربما زعموا ان كلبهم نائم تحت أقدامهم وبنحو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وصل القطار الى آخر مركزي فسلمتُ مامعي لناظر المحطة وذهبتُ لغرفة النوم وتخلصتُ من وسواس ذلك المفقود لا أرجعهُ الله

وبعد مضي يومين علمت ان الشركة مصرحة بأن يكون لكل عامل خادم يصحبه أنى توجه لنقل أمتعته من مكانٍ لآخر وهي تصرف له غذاءه الذي هو عبارة عن مكيالٍ صغير من الارز أما أُجرتهُ الشهرية فتكون على سيدهِ فلم أتأخر عن انتقاء خادم . ومن النادر ان يمكث الخادم عند مخدومهِ أكثر من شهر خصوصاً اذا كان يخدم كومسارياً لصعوبة عملهِ وذهابهِ وايابهِ في حرّ النهار وبرد الليل وتحت النيران الحامية المتساقطة من مدخنة القاطرة أو الامطار الغزيرة

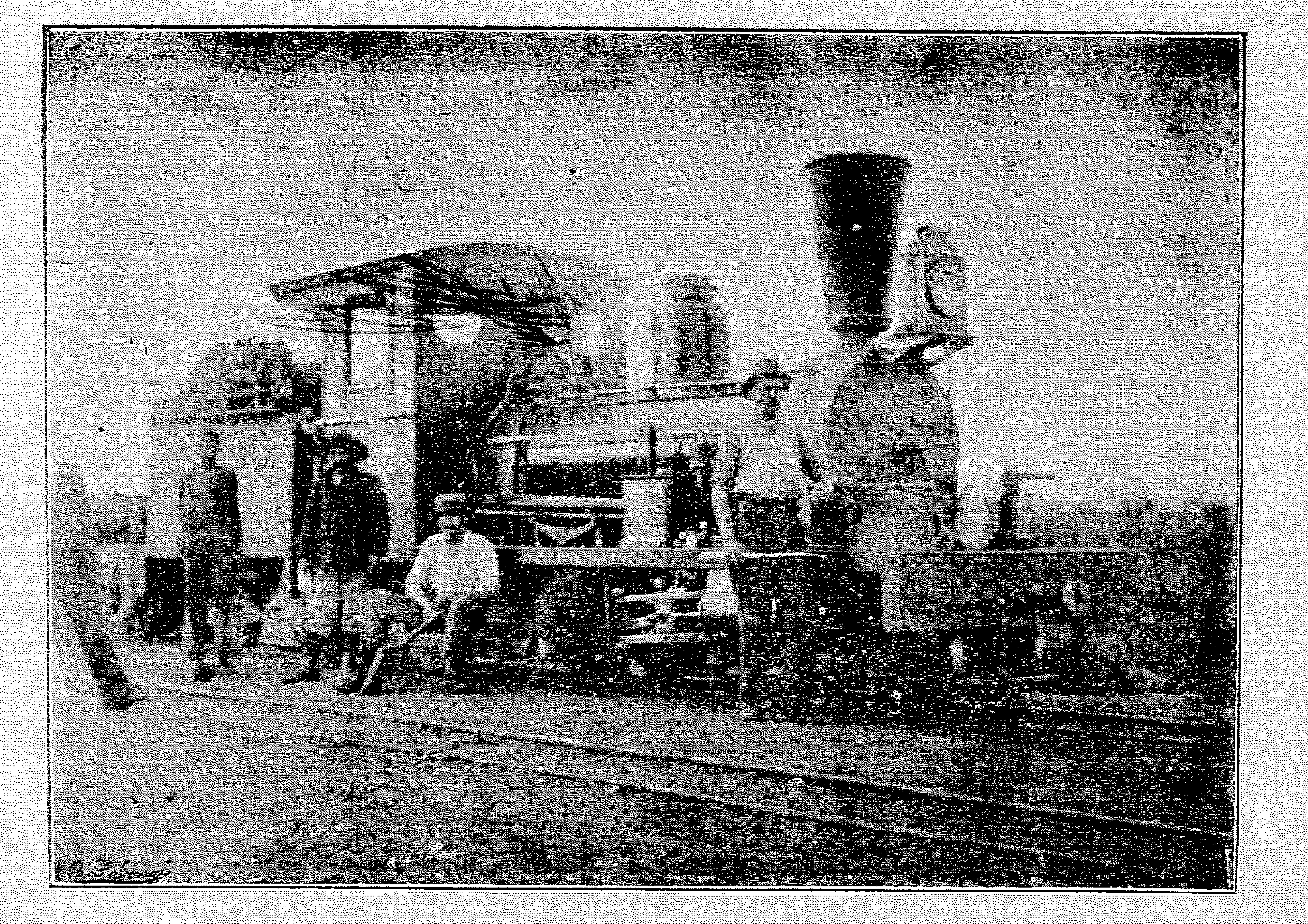
ان من يريد ان يصف مشاق ذلك العمل المحفوف بالاخطار والمخاوف يلزم لهُ وقت طويل حتى يملأ مجلدات ضخمة اذا طالعها أحد عدها من باب المغالاة أو قال انها أقوال ملفقة ولكن لما كان ما لا يدرك كلهُ لا يترك جلهُ آتي على ذكر ما يساعد على تصوير بعض الشيء

قمتُ مرةً في نصف الليل بقطار مخصوص يقل مدير عموم الشركة وكان القطار مركباً على هذا الترتيب : القاطرة وثلاث عربات بدائر مشحونة صناديق تحتوي على آلات ميكانيكية وأخشاب دقيقة مشغولة ثم عربة صالون المدير وكان محل جلوسي على قمة العربة الثالثة من القطار بمعنى انهُ كان بيني وبين القاطرة عربتان ولا حاجة بي الى التنويهِ عن تنفيذي اللائحة والتعليمات بكل دقة والتيقظ اكثر من اللازم . عادة كل عامل امام رئيسه . كما وليعلم الانسان ان الحر شديد جداً في النهار في تلك الجهات حتى انا من شدة الحرارة كنا نتظلل بأغصانٍ نقطعها من الاشجار وأما في

الليل فالبرد يكون قارساً ولا تقل درجتهُ عن برد ليالي شهري دسمبر ويناير في القطر المصري . وبما أني جالس في ذلك الوقت على سطح العربة المكشوفة كان البرد يتضاعف من مسير القطار حتى أني كنتُ أشعر أن بشرة وجهي انسلخت وأنفي جدع وأُذنيَّ صلمتا وأناملي بترت ، ومن جهةٍ أخرى فاني كنتُ أتحاشى تلك النيران المتساقطة عليَّ بدون انقطاع حتى كنتُ كمن يوخز من امام وخلف ويمين ويسار وفوق وتحت وهو أمرٌ مؤلم محزن مبكٍ وان كان مضحكاً شكلاً . وقد كان خادمي الذي لا يقلّ عمرهُ عن خمس وعشرين سنة متمدّدًا بجانبي مثقلاً بالنوم الاَّ انهُ لم يكن هادئ البال ساكن الجاش لانهُ كان في عراك مستمرّ مع ذينك العدوين العنيدين اللذين كانا متتبعين خطة الهجوم بينما هو يتتبع خطة الدفاع وقد انجلت الواقعة بقهرهِ فقد أتى أمرًا لا يذكر من شدة البرد واحترقت مأزرتهُ من فعل النيران

وحوالي الساعة العاشرة صباحاً قبل وصول القطار الى المحطة الانتهائية ببضع دقائق لمحتُ دخاناً متصاعدًا من العربة التي وراء القاطرة تماماً فأشرت للسائق بالوقوف قرب الصهريج الذي عند مدخل المحطة ولكنهُ لم يرضخ لاشارتي ولما وقف القطار في حلقة المحطة فصلتُ تلك العربة المتقدة فيها النار وأسرعتُ لاخبار ناظر المحطة فما كان منهُ الاَّ أن صرخ على بعض العبيد وصاروا يحولون ماءً ونحن نشتغل باطفاء النار و بعد أن انتهينا من تلك العملية المشؤومة أخبرني معاون المحطة بأن لا أذكر عنها شيئاً في تقريري اليومي اذ أن فيها ما يمسّ السائق لعدم رضوخهِ لاشارتي وربما تسبب عن ذلك طرده من الشركة ، لانهم يعتبرون ان اشارات الكومساري أو ناظر المحطة للسائق هيَ كأوامر الضابط لعساكرهِ في معمعة القتال بمعنى انهُ يلزم فيها الانقياد الاعمى وهو نظام حسن يقلل الخطر كثيرًا في السكك الحديدية وعلى ذلك تكتمت الخبر وظننت أن تلك الحادثة طويت في سجل الكتمان

على انهُ بعد بضع أيام دعاني ناظر بامبوريك الذي بيدهِ أمورنا وبعد أن أدخلني الى مكتبهِ ووصد الباب ناولني مكاتبةً وقال لي أن أقرأها واذ هو تقرير مقدم من ناظر مانديجس تلك المحطة الانتهائية يشنع فيهِ عن اهمالي تشنيعاً ليس من ورائهِ سوى طردي ان لم يكن ايداعي السجن وهو مرسل بجواب من مأمور الادارة للناظر يشير فيهِ اليهِ بدقة تحقيق المادة وان رأى ثبوت التهمة عليَّ فيخليني من عملي فلما أتيت على منتهى تلك المكاتبة المزعجة لم أستطع أن أحجز نفسي عن البكاء وأخيرًا قصصتُ لهُ حقيقة الامر وذكرت لهُ أن المعاون خدعني خيفة الحاق الضرر بالسائق ولما لم يجد ناظر مانديجس مناصاً من اشهار المسألة أخذ يهوّل ويشنع فيَّ حتى يسبل الغطاء على الحقيقة خوفًا من وقوع المسؤولية على ابن جنسهِ ثم كتبت كل أقوالي هذه وقد رأى منها الناظر والمأمور ما درأ عني شبهة التهمة والسلام ،



المؤلف يؤدي اعماله فى سكة حديد بايرا

الفصل السابع

الاخطار وموجودات الغابة والاستعفاء

ختمتُ الفصل السابق وكأن الصعوبات تنحصر في الحرّ الشديد نهارًا والبرد القارس ليلاً ومقذوفات مدخنة القاطرة والمسؤولية العظمى عن أدنى شيء في العمل على انهُ فاتني أن أذكر شيئاً عن الامطار الهائلة التي كثيرًا ما كانت تجرف أجزاء من السكة فتنعطل القطارات في وسط الطريق ويخوض العامل في تيارات المياه المنحدرة ٭ قمتُ مرة من بامبوكريك وريثما علوت سطح العربة التي ناسبت أن تكون محل جلوسي وتحرّك القطار أخذت الامطار تهطل قليلاً قليلاً وبعد برهةٍ تدفقت كالسيل المنهمر حتى خلتُ أن ميازيب السماء انفتحت ولم أجد ما يقيني منها لان القطار كان مركبًا من عربات مكشوفةٍ مشحونة بقضبان حديد وأنا جالس على قمة واحدةٍ منها وقد كنتُ أحاول في مبداءٍ الامر أن أستتر منها بنشر سترتي عليّ ولكني لما رأيت أن ذلك لا يجدي نفعًا تربعتُ وقلت (أنا الغريق فما خوفي من البللِ) حتى ثقلت عليّ ملابسي وضقتُ ذرعًا وكنتُ ألعن ذلك اليوم الذي وُلدتُ فيهِ وتلك الليلة السوداء التي حبل بي فيها وقد صار صندوق زادي وربطة فراشي كعصارة وقد أصبحتْ وأضحتْ وظلت الامطار تتدفق على نواصينا حتى قبل وصولنا للمحطة الانتهائية بقليل. ولما انقشعت السحب وظهرت الشمس تجرّدتُ من ملابسي الاّ ما سترني منها وبعد أن عصرتها نشرتها تحت الشمس وكذلك فعلت بأمتعتي ومراسلات وطرود مصلحية اذ كان أصابها بعض الشيء معانها كانت داخل صندوق وبعد أن وصلتُ الى منتهى سفري وأردت النوم لاني كنتُ منهوك القوى

رأيتُ أن فراشي وملابسي لا تزال مبلاة فلم أستطع النوم ولذلك عرجت على الكانتين خلافاً لعادتي وشهيتي في هذا الاغتراب وعمدت الى تناول بعض أقداح من الجن اقتداءً بغيري

وأيضاً كم من مرةٍ لانجد امامنا شيئاً من الخبز ومع ذلك فلم يكن هذا بالامر الصعب اذ كنا نعتاض عنهُ بالارز المطبوخ الاَّ أن الانكى من ذلك اتفاق عدم وجود ماء للشرب أحياناً حتى اننا كنا نتسلى عنهُ وتتصبر بالشاي غير المحلّى الممزوج باللبن المحفوظ وكنا نحضر الماء الساخن من مرجل القاطرة. والذي كان يعزي الانسان هو انهُ كان يرى ان البلاء شامل جميع الذين معهُ

أما الاخطار فكثيرة يطول شرحها ولكنني اكتفي بذكر بعض ما أحدق بي منها

* * *

ذات مرةٍ عند الساعة الثامنة مساءً كنتُ مسافرًا وجالساً على عربة سطح مشحونة بقضبان حديدية وكان امامها عربتان من صاج (خزن مقفولة) فبينما كان القطار صاعدًا على مرتفع عظيم لحت العربتين اللتين امامي تميلان يمنةً ويسرةً ثم مالتا ميلاً كبيرًا وبدون تروٍ طرحتُ بنفسي من أعلا القطر وسقطت على ميل الجسر وصرت أهوي الى الحضيض بين الحشائش والاعشاب ومن خوفي من الضواري أجهدت نفسي في الصعود من تلك الوهدة وكان السائق والعطشجي يزعمان أني هلكتُ لا محالة فلما رأياني أخذا يفحصاني فلم يجدا بي سوى بعض خدوشٍ خفيفةٍ في يديَّ وساقيّ من تعرّض بعض الاعشاب لي في طريقي ومحاولتي التشبث بها عند دحرجتي وصعودي وبعد أن فحصنا حالة القطار علمنا أن احدى العربتين اللتين خلف القاطرة تطوّح جسمها (الصندوق) حتى خرج عن دائرة مركز ثقله فسقطت على

أحد جانبيها وسحبت معها الاخرى وبذا خرجت القاطرة عن الخط . أما العربة التي كنتُ بها فلكونها واطئة لم تسقط مع غيرها بل خرجت عن الخط ومن قوّة الحركة انحلَّتْ سلاسل أربطة القضبان المشحونة وهذه انتفضت شذر مذر، فلولم أطرح بنفسي أرضاً لكانت مزَّقتني تمزيقاً . ثم أخذنا في عمل الاجرآت اللازمة في مثل هذه الاحوال التي كان من مقتضاها بصفتي كومساري القطار أن أتوجه راجلاً الى أقرب محطة لابلاغ الخبر . فليتصوَّر القارئ حالتي في ذلك الوقت سائرًا في الظلام ومعي خادمي وخادم السائق في وسط تلك الغابات ونحن نتلفت ذات اليمين وذات الشمال خوفاً ورعباً من الوحوش الكاسرة

***

ومرَّة أخرى بينما كنا مسافرين ليلاً اذ تعطل قطارٌ أمامنا في منتصف الطريق فتعطل قطارنا خلفهُ ولما كان قطارٌ ثالث قادماً خلفنا قضت عليَّ الاحوال بأن أحمي قطاري منهُ فأعطيتُ فانوس الاشارة لخادمي لكي يذهب بعيداً ويوقف القطار القادم . ولما ذهب تذكرتُ أننا في منحدرٍ عظيم وربما أن ذلك العبد لا يحسن الاشارة بالفانوس فينحدر ذلك القطار على قطارنا الواقف ويحطمان بعضهما فتخوَّفت شرَّ العاقبة وفي الحال أخذتُ فانوس مؤخر القطار لمباشرة العمل بنفسي . فما ابتعدتُ نحو مائتين وخمسين ياردة تقريباً وهي نصف المسافة القانونية لحماية القطارات حتى سمعت ما ارتعدتْ منهُ فرائصي وانحلت منهُ مفاصلي . نعم سمعتُ زمجرة وحش كاسر قريب مني تخفيني عنهُ الاشجار والحشائش ، فطرحتُ الفانوس لأكون خفيفاً وصرتُ أقفز قفزًا لم أعهدهُ في نفسي من قبل عائدًا للقطار صارخاً بأعلى صوتي ، ولو لم تكن المسافة قريبة وطريقي منحدر تسهل لي سرعة العدو لكان افترسني ذلك الوحش بلا محالة وكنت الآن جزأً من ثرى تلك الارض . أما

الخادم فكما علمت منهُ أنهُ لما سمع ذلك الصوت المرعب تسلق شجرةً حتى اقترب منهُ القطار المنتظر

***

وليست هذه المرّة الوحيدة التي كنت فيها عرضةً لخطر الوحوش بل مرّتان أخريتان احداهما كانتْ بمحطة بامبوكريك وأنا بالمرحاض الواقع خلف المحطة اذ كنت تلك الليلة مصاباً باسهالٍ اضطرّني للخروج مرارًا عند منتصف الليل ولقد نجوت لقرب عشش العبيد من ذلك المرحاض والنيران الكثيرة التي يوقدونها لارهاب الوحوش

***

أما المرّة الثالثة فقد اتفق أن قاطرة قطاري تعطلت بالمحطة التالية لبامبوكريك فلبثنا هناك ريثما ترسل قاطرة أخرى لنقل قطاري وقضت الحالة أني أبيت بتلك المحطة . فلما خيم الظلام أردتُ قضاء حاجةٍ ولما خفت الوصول الى المحل المعيَّن لانهُ كان واقعاً بين الاشجار فضلت أن أبتعد قليلاً خلف القطار الواقف وأقضي تلك الحاجة على جانب الطريق . فلما قضيتُ وطري وانتصبتُ سمعت وطأ اقدام على الحشائش بين الاشجار . فملتُ بأذني وحملقت بنظري حتى أتأكد الحقيقة وكانت اذ ذاك قدماي متحفزتين للوثوب واذ قفز وحشٌ لجهتي ، ولحسن الحظّ لم يدركني اذ كأنهُ لما رآني على وشك الفرار منهُ وثب عليّ على مسافة أبعد من وثبتهِ . عند ذلك صرخت وخطوْت تلك المسافة القصيرة في بضع خطوات ؛ وكان الناظر واقفاً مع عمال القاطرة يجتهدون في اصلاح الخلل ، فلما سمعوا صراخي تقدموا لناحيتي بأنوارهم التي بأيديهم ، فقال لي الناظر : ألم تتعلم الاحتراس بعد ؟ . فلماذا لم يكن معك قنديل ؟ فجاوبتهُ اني قريبٌ جدًّا من القطار ، ثم دعاني الى

تناول قدح من الوسكي . أما هذا الناظر فاسمهُ ملك لين وكان عسكريًا في فرقة الهايلندرس وحضر الحرب العرابية ولبث بمصر نحو ثلاثة شهور . وقد كانت في هذه المحطة في ذات ليلة حادثتي عربة مكشوفة مشحونة وبها أربعة أكياس أرز، فلما تفقدها الناظر في الصباح رأينا أن بها كيسين فقط فاستغربنا الامر، ثم لحنا أثر جرٍ وأقدام حيوان على الارض فتتبعناهُ حتى وجدنا كيسًا ممزقة اطرافهُ وبعد بحث طويل عثرنا على الثاني وسط الغابة ، فقال لي الناظر ضاحكاً : يظهر أن الوحش أراد أن يعتاض عنك بالارز ، أو ربما أتى ذلك من حرقتهِ على ضياع فريستهِ منهُ أمس اذ أننا لم نسمع أن الوحوش تأكل أرزًا

على انني لستُ دون سوايَ تعرَّضتُ مرَّات لمثل هذا الخطر بل ان كل زملائي كذلك الا انهُ لما كنا دوامًا على حذر ليلاً ونهارًا كانت العواقب سليمة .

وكثيرون من الناس من يصطادون تلك الوحوش فان لم يكن من باب الرحمة والشفقة على الآدميين فطمعًا في أظافرها وجلودها التي تباع في الخارج بأثمان عالية

***

كنا مرَّة منتظرين باحدى المحطات قطارات من الجهة المقابلة واذا بخادم الناظر ومعهُ عبدٌ آخر يجرَّان نمرًا مخططًا (فهدًا) وقد أخبرنا الخادم أنهُ بعد أن أطلق عليهِ عيارًا أصابهُ ولكن لم يقتلهُ تحوَّل النمر للهجوم عليهِ ليمزقهُ ولكن العبد لم يمهلهُ بل أطلق عليهِ عيارًا آخر أصاب مقتلهُ

وغاية ما يقال أن الوحوش الكاسرة في تلك الغابات كثيرة جدًّا يتحدث بها الرائح والغادي وكثيرًا ما نظرناها تهرب أمام أعيننا من قرقعة القطار

أما الوحوش والحيوانات التي تكثر في تلك الجهات فهي الاسد والنمر والفهد وابن آوى وحمار الوحش المخطط وجاموس البر (البوفالو) وبقرهُ والغزال على أنواعهِ

والحلوف والارنب وحيوانات أخرى صغيرة وقد أكلنا من كل لحوم مايؤكل منها ولا أنسى أننا صنعنا مرّة شوربة من عظام البوفالو فكانت غاية في الدسم واللذة

***

ومرّة نظرت قطيعاً من حمير الوحش لا يقلّ في العدد عن عشرين بين كبير وصغير ، وقد كانت كلها مقتربة من بعضها على جانب الطريق حتى لما مرّ القطار بجانبها ذعرت وقمصت هاربة وسط الحشائش

ويوجد من الطيور الدجاج البرّي السمين ونوع من القمري وعصفور بحجم السمانة وهذا يصدح طويلاً بنغمةٍ منتظمة جداً ثم طير كبير في حجم العرنوق ولهُ منقار أحمر طويل وكيس عريض في رقبتهِ وهو يلتهم الجراد بالعشرات اذ أنهُ يحط على أطراف أعالي الاشجار وعند مرور الجراد امامهُ يفغر فاهُ ويحلق عليهِ فيدخلهُ بدون عناء والطير ما عليهِ الاّ ايداعه في ذلك الكيس الذي على ما أظنّ لا يمتلئ بأقل من ألف جرادة

ثم يوجد الجراد (وقانا الله شرّهُ) وهو كثير بدرجة لا يتصوّرها العقل حتى يخال اني أبالغ في ما اكتبهُ عنهُ . فمرّة مرّ علينا فحجب عنا أشعة الشمس فقلنا ونعم المظلة ، ومرّة أخرى اعترض قطارنا في طريقهِ وكان متراكماً على بعضهِ على الارض حتى ان القطار لكثرة ما كان يدوسهُ منهُ كان يتزحلق لاننا كنا صاعدين على مرتفع وعلى ما أتذكر أن السائق أوقف القطار ثلاث مرّات وأخيرًا لم يجد أحسن من ازدياد البخار والسرعة لمقاومة تلك الجيوش الجرّارة ولقد كنا نستر وجوهنا بملابسنا لنتقي شرّ اصطدامهِ بنا وغاية ما أقول أن القطار كان كسفينةٍ تتماوج بين أمواج محيط من جراد وبعد ما خرجنا من خطوط الاعداء وتخلصنا من تلك المعركة الشعواء أوقف السائق القطار وأخذ في تنظيف آلات القاطرة الخارجية التي

كانت تغطت بجثث القتلى وتلوثت بدمائهم وحمدنا الله على أن النصر كان حليفنا

وتوجد أيضاً حشرة تشبه ما نسميهِ بأبي طبق وهذه تطير في الظلام الحالك وتنير حولها نورًا لامعًا فصفوريًا ما أبدعهُ وما أبهجهُ ، وكثير من أنواع الفراش (أبو دقيق) وهي ذات ألوان مختلفة بديعة جدًّا ومنها ما اذا فرد جناحيهِ كان كاتساع كف الانسان ، وكثيرون من الاوربا وبين مغرمون بعمل مجموعات منها حتى وان أحد نظار المحطات كان جامعًا منها شيئًا كثيرًا معلقًا على جدران مكتبهِ مرشوقًا بدبابيس في الحائط وكم كان هذا المنظر أبهج من تعليق الصور والرسومات بكثير .

أما الدواب السامة فلم أنظر منها أو أسمع عنها شيئًا الاَّ أن هناك نوعًا من الهوام أصغر من حجم البرغوث ويسمى (متاكين) وهو يعلق بالاخمص الحافية ولا يعلم بهِ الانسان الاَّ بعد أيام حيث يشعر بأكلان شديد والعبيد دون سواهم لهم مهارة في استئصالهِ وان لم يستأصل عاجلاً نتج عنهُ تأكل واشتد الالم وآل الامر الى نوع أشبه بغنغرينا بطيئة السير لا يُحلُّ اشكالها الا ببتر القدم ، ولقد رأيتُ كثيرًا من العبيد مصابة أقدامهم بهذا الداء العضال وهم لا يرجون الشفاء منهُ وتراهم صابرين على هذه البلية العظمى وفاتهم أن الصبر ليس بمحمود في كل الامور

أما الآن وقد انتهيتُ من ذكر الصعوبات والاخطار ثم مخلوقات تلك الجهات التي جرَّني الى ذكرها سيرة الوحوش الضارية فاني أذكر أمرًا كان من بواعث الاستعفاء وهو ان أغلب العمال الذين معنا من الطبقة الثالثة فهم من رعاع بريطانيا وسفلة المستعمرات نزحوا عن ديارهم في طلب كفاف العيش ولذا كانت أخلاقهم وطباعهم عبارة عن مجموع رذائل لا يحلو لهم سوى السباب والالفاظ البذيئة واتيان كل الدنايا الممقوتة ومع كل ذلك فهم جهلة متغطرسون يحتقرون

كل آدمي غير بريطاني خصوصاً اذا كان مصرياً[1] لاعتقادهم أن كل أبناء أفريقيا الاصليين همج متبربرون حتى أنهم كانوا يتطاولون ويسموننا انا وزميلي بلفظة سود (عبيد)

والذي زادهم فينا كرهاً ومقتاً هو أني وزميلي والحق يقال كنا نؤدي أعمالنا أحسن منهم لاسيما وكانت خطتنا الصدق والدقة في تنفيذ اللائحة والاوامر ولذلك كنا مراراً عديدة سبباً في مجازاة كثيرين منهم حتى انهم كانوا يتواطؤون مع أغلب نظار المحطات على ما يجلب علينا الضرر ولكن كل ما كانوا يأتونهُ من هذا القبيل كان عبثاً وما ذلك الا لعدل مأمور الادارة وحسن طوية ناظرنا الاكبر اللذين كانا يميلان لنا كل الميل لما تأكداهُ فينا من اقتدارنا على عملنا وسيرنا الحميد وانقيادنا الانقياد الاعمى للرؤساء (وشهادتي التي بيدي للآن أكبر دليل على ذلك) حتى اذا سئمت أنفسنا تكرار الشكوى من سوء معاملتهم لنا استعفى زميلي وسافر الى بايرا

أما من جهتي فاني لبثت بعدهُ بضعة أيام حتى في يوم ٣١ اكتوبر سنة ٩٩ تطاول عليَّ بالسباب شاب بويري من زملائنا وأخيراً أراد أن يجرَّني للمضاربة ولكنني بذلتُ كل ما في وسعي لتجنب تلك الملاكمة التي سأكون فيها مغلوباً لا محالة لان ذلك الخصم العنيد طويل القامة عريض الكتفين قويّ البنية شديد العضلات . فلما وصلتُ للمحطة الانتهائية قدمتُ تقريراً بما حصل من ذلك البويري لذلك الناظر الذي لا أعهد فيهِ العدل ولا الانصاف من يوم حادثة الحريق السابقة الذكر ولكن هي الاصول قضت عليَّ بأن أشكو خصمي لخصم

---

(١) عن ذلك كانت رسالتي المدرجة بجريدة المؤيد بعددها الصادر في ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٩٩ نمرة ٢٨٩١ تحت عنوان (لماذا أنا ممقوت)

آخر . وفي اليوم التالي عدتُ الى بامبوكريك ولم أذكر شيئاً عن البويري الناظرنا الاكبر . وفي يوم ٣ نوفمبر قمتُ بقطار مهمات وبينما أنا في احدى المحطات المتوسطة اذ سلمني ناظرها أمراً كتابياً بناءً على اشارة تلغرافية وردت لهُ من ناظر المحطة الانتهائية (غير العادل) ومضمونها : اني أنقاد لاوامر ذلك البويري الذي كان ملاحظاً على تفريغ المهمات حسماً للمشاكل ومنعاً للعطل ، فقلتُ في نفسي : وهل كان نزاع أوّل أمس مسبباً عن عدم انقيادي أو عن خطإٍ أتيتهُ في عملي ؟ فيا للعجب هل أُسبُّ وأُهان على غير داعٍ كما يعلم الله ثم ينسب لي عدم الانقياد والخطأ والعطل . واذا كان الامر كذلك فلا طاقة لي على البقاء في هذه الاشغال الشاقة وتحمل المكروه

وفي يوم ٣ منهُ عدت الى بامبوكريك وأنا أكاد أتميز من الغيظ وبعد أن انتهيت من اعمالي الكتابية جهزت متاعي وقصدت ناظرنا فأعلمتهُ بأني راغب في الاستعفاء والسفر في هذه الليلة الى بايرا . ولما سألني عن السبب برقتهِ المعهودة لم أجبهُ الا بالبكاء . فابتعد عني قليلاً حتى كفكفتُ الدمع وأخيراً ذكرت لهُ حكاية البويري وما كان من ناظر المحطة الانتهائية . فلرقة عواطفهِ وحسن آدابهِ أخذ في ملاطفتي واقناعي بأنهُ سينظر في الامر ويأخذ بناصري من كل من تعدى عليَّ . ولكن لما كان امتلأ الحوض وقال قطني وطفح الكيال صممت على طلبي وتشكرت لناظرنا المسمى ل.ل تومس وفي الحال حرر لي جواباً باخلائي وأبدى فيهِ شديد الاسف على الاسباب التي حملتني على الاستعفاء . وسافرت الى بايرا في تلك الليلة فلما وصلتها وجدت زميلي هناك ولم يكن قدم نفسهُ بعد لمكتب الشركة . وفي اليوم الثاني توجهنا لمركز الشركة ولما مثلنا بين يدي مأمور الادارة أخذنا في سرد البواعث التي حملتنا على الاستعفاء . فمن لطفهِ قال انهُ ينقلنا الى

قسم بايرا ليكون مركزنا بالمينا فلم تقبل وأخيرًا أمر بصرف باقي ما نستحقهُ باخلائنا من الشركة

وبعد مضيّ أيام رأيت أن حركة الاعمال واقفة نظرًا للحرب الانجليزية البويرية التي استعرت نارها ودارت رحاها من نحو شهر على قربٍ منا ففكرت في الرحيل الى بلاد أخرى ثم خطر ببالي السفر الى زنجبار مع أني لا أعرف عنها شيئًا البتة . ولما صممتُ على ذلك تصميماً نهائياً ذهبتُ الى ديوان الشركة وطلبتُ شهادتي ومصاريف لسفري الى جهة أخرى فأخذتُ الشهادة . أما المصاريف فعارض فيها المدير العمومي بعلة اني تركتُ الاشغال من تلقاء نفسي وفضلاً عن ذلك فاني لم أتمم ستة شهور في خدمة الشركة . فأجابهُ مأمور الادارة انهُ يعلم كل ذلك ولكنهُ يودّ اجابة طلبي بنوع استثنائي لحسن سلوكي ونشاطي في العمل . وبناءً عليهِ صُرف لي ستة جنيهات ثم مضيت للاستعداد للسفر وقد كانت مدة اقامتي ببايرا من بعد استعفائي اثنين وعشرين يوماً لم أُباشر في أثنائها عملاً ما

الفصل الثامن

السفر الى زنجبار ومشاهدها

في ظهر يوم الاثنين الموافق ٢٧ نوفمبر سنة ٩٩ ركبتُ الباخرة الالمانية «قيصر» ووجهتي زنجبار ولما كانت الدرجة الثالثة التي أنا نازل بها مزدحمة جداً وليس لي محل بها لم أجد ما يقيني شرّ النوم على السطح سوى أن أضع يدي في جيبي وناولتُ رئيس مائدة الاكل ماناولتهُ وبعد برهةٍ عيّن لي محلاً بين زملائهِ فقلتُ حقاً ان الدرهم يفعل مالا يستطاع فعله بدونهِ وفي غروب يوم الاربعاء أي بعد يومين وصلنا مينا موزامبيق ولبثنا بها زهاء الليل وسحابة اليوم الثاني ، وفي غروبهِ أبحرنا منها وريثما خرجنا من المينا رأينا البحر هائجاً مائجاً حتى اضطربت القلوب من شدة اضطرابهِ وهلعت النفوس من عظم دويهِ فلم يكن لنا سوى النوم وفي اليوم الثاني انتصبنا لتناول الغداء واذ بالمائدة تكاد تكون خالية من الآكلين ولو كان طعام الالمانيين كطعام الفرنسا وبين لفرح الآكلون القليلون لغياب رفاقهم ولكن طعامهم لا يؤكل الا عند الجوع لسدّ الرمق فهو ينحصر في البطاطس المدقوق والسلاطة المسلوقة واللحم المملح الذي لا تطاق رائحتهُ ولقد كنتُ أستغني عن هذه الاطعمة قانعاً بالزبدة والمربة والجبن

وفي ضحوة يوم الاحد ٣ دسمبر رسينا على مينا دار السلام عاصمة المستعمرة الالمانية . وقد كنتُ أودّ كثيراً أن أشاهد تلك المدينة حباً في اسمها العربي ولكن لما كانت مدة وقوفنا وجيزة جداً لم يصرّح القبطان بنزول أحد وعند الساعة الثالثة مساءً أقلعنا منها وفي الساعة السابعة مساءً من ذات اليوم ظهرت لنا أنوارٌ كهربائية ساطعة فعلمنا أننا أمام جزيرة زنجبار وبما أن قوانين تلك المينا تقضي

بعدم دخول المراكب بها بعد الغروب بتنا خارجاً عنها نتراوح هنا وهناك

وفي الساعة السابعة صباحاً (يوم الاثنين ٤ دسمبر سنة ٩٩) وطأت قدماي أرض تلك الجزيرة التي انشرح صدري لمرآها لانها كانت أعظم مدينة وقع عليها بصري منذ رحيلي عن وطني ثم وقفتُ على البر متحيراً يكتنفني صبية أدلاء وبما أني كنتُ أحمل على رأسي برنيطة من القش أخذ بعضهم يخاطبني بالتليانية وآخر بالبورتغالية أو الانجليزية ، ولتكاثرهم عليّ تكتكاكئهم على ذي جنة زجرتهم بالعربية وعند ذلك ظهر واحد منهم وخاطبني بالعربية فقصدتُ فندقاً وبعد أن اغتسلتُ وغيرت ملابسي استصحبني دليلي للتفرّج على المدينة وفي اليوم التالي استأجرت أودة واشتريت بعض الادوات اللازمة وأقمتُ بها ولما رأيتُ أن هناك طرابيش تباع أسرعتُ وابتعتُ واحداً منها وتخلصتُ من البرانيط بعد أن لازمتني ثمانية شهور .

***

كانت بلاد زنجبار سابقاً عبارة عن جزء عظيم من ساحل أفريقا واقع شمال بلاد موزامبيق وجنوب بلاد الصومال وعاصمتها جزيرة زنجبار وكانت تابعة لدولة البورتغال ثم أغار عليها أمراء عرب بلاد عمان بمراكبهم الشراعية تحمل خيلهم ورجلهم فاستولوا عليها عنوةً واقتداراً ومن ثم صارت مملكة عربية كبيرة على أنها مع الاسف لم تلبث قليلاً في حوزتهم حتي احتاطت بها الدول الاورباوية وأخذت تنهشها نهش الجوارح الجيف فنالت كل منها ما نالتهُ وقد كان الحظ الاوفر منها للنسر الالماني . ثم صارت تتقلص شيئاً فشيئاً حتى أصبحت هذه المملكة عبارة عن تلك الجزيرة مع ملحقات صغيرة جداً وهي جزيرة بمبا وجزءٌ صغيرة من ساحل أفريقيا الشرقي يشمل مومباسا (وتكتب ممبسة حسب بحث حضرة اللغوي البارع صاحب العزة احمد بك زكي) الممتد منها خط السكة الحديدية الانجليزية الذي

سيصل قريباً الى أوغاندا وكلها تحت حماية الاسد البريطاني

أما جزيرة زنجبار فهي واقعة على الدرجتين السادسة والسابعة من خط الاستواء جنوباً فهي في المنطقة الحارة ولما كانت لا تبعد عن أرض قارة أفريقيا شرقاً بأكثر من خمسة وعشرين ميلاً في المحيط الهندي كانت معدودة من دائرة تلك القارة ومساحتها ستماية وثلاثين ميلاً مربعاً وبما أنهُ لم يحصل تعداد قاطنيها للآن فأستسمح القارئ في الاكتفاء بتقدير الامم المختلفة التي بهـا تقديرًا نظريًا يحتمل الزيادة والنقصان

ففيها من الاورپاويين نحو ثلثماية نفس ما بين بريطانيين وألمانيين وفرنساويين وايطاليين وغيرهم وأغلبهم مشتغلون بالتجارة

ومن الهنود نحو عشرين ألفاً ولذا يخال للانسان أنهُ في بلد من بلاد الهند وهم القابضون على زمام التجارة الكبيرة والصغيرة والحرَف أيضاً ثم هم من طوائف وأديان مختلفة ، فمنهم اسلام ومن ضمنهم من ينتمون الى طائفة سموّ آغا خان الذي لا يزال على قيد الحياة ويعتقدون فيهِ العصمة والقدرة على غفران الخطايا ولذلك يمجدونهُ وينشدون لهُ أناشيد وأغاني مخصوصة به ويعيدون لهُ أعياداً كل بضعة أسابيع ولو توفي اليوم أحد أفراد عائلةٍ مثلاً وكان في اليوم التالي ميعاد عيد جناب آغا خان فعائلة المتوفي تكف عن الحزن وينقلب حزنها الى فرح ورقص وسرور ، وجنابهُ مشهور بالذكاء والمعرفة وهو ذو حولٍ وطولٍ في بلاد الهند وموقر بين الملوك والامراء خصوصاً لدى دولة بريطانيا العظمى ولهُ أموال عظيمة حتى انهُ يقال أن أغلب المصارف (البنوكة) ببلاد الهند دائرة عليها وقد زار أبناء طائفتهِ في زنجبار من نحو ثلاثة أعوام فقوبل رسمياً مقابلة السلاطين وأدبت المآدب وأولمت الولائم وأقيمت الزينات الباهرة في انحاء المدينة اكراماً واجلالاً لسموّه

ومنهم البانيان (وكلهم تجار وأصحاب حرَف) وهم الوثنيون الذين يحرقون موتاهم وكيفية الحريق أنهم يأخذون المتوفي الى مكان مخصوص منفرد على شاطئ البحر ومعهم كلبٌ وهناك يكشفون الجثة فاذا اقترب الكلب منها (كان على زعمهم) ان ذلك المتوفي صالحاً (ولا أظن أن الكلب يقصر في تأدية هذه المهمة) وبعد أن يطلون الجثة بالمسلي يضعونها على كومة من خشب الوقود ثم يشعلون النار فيها حتى اذا احترقت وصارت رماداً أخذوهُ وذروهُ في اليمّ. والمعلوم أن هذه العادة أحسن صحياً من خلافها ولكن كيف تقوى تلك القلوب البشرية الضعيفة على هذا العمل. اني كنتُ تتبعتُ ذات مرّة قوماً حاملين ميتاً الى حيث يتمون تلك العادة الوحشية ولكن ما خطوتُ بضع خطوات الاّ وخانني جلدي فانقلبتُ راجعاً

ومنهم الجاويون الذين من بلاد جاوه وهؤلاء كلهم مسيحيون متمدنون تماماً كالاورباويين ومنهم عمال البوسطة والجمرك وأصحاب حرَف ومستخدمون بمحلاّت التجارة والشركات ولونهم كلون البرابرة المصريين أو أفتح منهم قليلاً أما لون الهنود الاسلام وأغلب البنيان فهو مثل لون المصريين بمعنى أنهُ يختلف بين أسمر وقمحي وخمري .

ثم الفارسيون الوثنيون وعددهم يبلغ نحو الالفين وأغلبهم مشتغل بالاعمال الكتابية ومن عاداتهم أنهُ اذا مرض أحدهم ورأوا أن حالتهُ تنذر بالخطر نقلوهُ قبل الوفاة الى المقبرة حيث بها محلاّت مستعدة كاملة الاثاث فاذا شفيَ عاد الى منزلهِ أما اذا مات فيصلبون جثتهُ ثم يطلقون عليها الطيور الجارحة حيث تنهش فيها ثم تطرح في جب عميق على أن منظر مقبرتهم أنظف وأحسن بكثيرٍ من مقابر الاورباويين وغيرهم

ثم الاعراب الذين كانوا أصحاب البلاد ومالكي زمام أراضيها وعددهم يقارب



الهنود وأزياؤهم — صبي هندي وخادمه جالس

الخمسة عشر ألفًا وأصلهم من جنوب شرق بحيث جزيرة العرب وهم كسالى جدًّا فمنهم من كان يكتفي بما ثمرهُ لهُ أرضهُ بعرق جبين العبيد ومنهم من كان يشتغل بتجارة الرقيق قبل ابطالها وهم لا يهتمون الا لبطونهم والفخفخة الفارغة الصادرة عن جهل مركب ، ومن عادتهم أن الرجل يمشي وراءهُ أربعة أو خمسة عبيد والمرأة يحيط بها نحو عشرين أو ثلاثين من الجواري ولابطال تجارة الرقيق قلّ عدد التوابع بكثير عن قبل ، أما عن حالتهم المالية فهي آخذة في الانحطاط بدرجة عظيمة محسوسة

ثم الزنوج أهالي البلاد الاصليون وهم مسلمون يشبهون السودانيين الا أنهم ألين عريكة وأزكى منهم بكثير وقد كانوا أرقاء من بضع سنوات أما الآن فهم أحرار وهؤلاء لا أتعرَّض لتقدير عددهم خوفًا من سقوطي في الخطأ الفاحش

وهناك نفرٌ قليل من اليابانيين لا يزيد عددهم عن ثلاثين وأغلبهم نساء عموميات بغيات وبعضهنَّ مليحات الاَّ أن شرطة عيونهنَّ ضيقة جدًّا وشعورهنَّ تفوق شعور كل الامم الاخرى سوادًا وطولاً ولباسهنَّ جميل يشبهُ القفطان عريض الاكمام وهو من الحرير أو الصوف البديع النقش واللون ، ويتمنطقنَ عليهِ بأحزمة حريرية . وصورة المرأة في اليابانيين أحلى منها في الرجل بكثير ويغلب فيهنَّ قصر القامة

***

وتختلف أزياء قاطني زنجبار عن بعضها كثيرًا ، وعلى الاجمال فان المسيحيين منهم على اختلاف أجناسهم يتزيون بالزيّ الاوربي المعلوم وأغلبهُ من التيل الابيض نظرًا للحرارة . والاعراب يتزيون بالزيّ العربي ويتخذون نعالاً يعلق سيرها بالباهم (أصبع القدم الاكبر) ثم العمامة الضارب لونها للاحمرار . والهنود المسلمون يلبسون أقمصة بسيطة وسراويل (بناطيل) وكلها من البفتة وعلى رؤوسهم الطاقية الهندي

المزخرفة أما نساؤهم فيلبسن أقمصة طويلة وسراويل واسعة وعلى رؤوسهنَّ وأكتافهنَّ ملاءة مزركشة وكل لباسهنَّ من الحرير الهندي المختلف الالوان وهو لباس خفيف ناعم جميل فاتن للابصار. وأقبح كل الازياء لباس رجال البنيان فهم مهما كان قدرهم لا يلبسون سوى جاكتة أو بالطو ويلفون نصفهم الاسفل بقطعة من الشاش بكيفية قبيحة لا تسترهم تماماً حتى وان الرجل يمشي وشيء من فخذيه وساقيه عارٍ بالمرة ويتعممون بعمامة كبيرة أو يكتفون بالطاقية الهندي. أما الزنوج فالذكور منهم يلبسون الجلاليب والطاقية البيضاء والاناث يتزرن بأزر ملونة ورؤوسهنَّ حاسرة والمحجبات المتبخترات منهنَّ يتعممنَ بقطعة من الصوف الغالي الثمن. ومن قبيح عادتهنَّ أنهنَّ يثقبنَ ثقوباً في حافة دائر آذانهنَّ وينظمنَ فيها قطعاً من ورقٍ مستدير ملوّن وهنَّ يعتبرنَ هذا التشويه من باب الحلية.

***

أما مجمل ما يقال عن المدينة فانَّ بها مباني عظيمة شاهقة كمباني الدرجة الوسطى في القطر المصري الاَّ أن شوارعها ضيقة جداً وطرقها رديئة للغاية ومع هذا الضيق ترى الجانبين مزدحمين بالحوانيت والباعة، لانَّ أغلب المباني هناك يكون الدور الاسفل منها حانوتاً والأعلى مسكناً وليس بها سوى شارع واحد مناسب يبتدئ من البحر وينتهي بالمزارع خارج المدينة وهذا يقطنهُ الاجانب، وحالة البلدة العمومية نظيفة لان الطرق تكنس مرَّتين في اليوم

وهذه الجزيرة تعد بمثابة مركز لتجارة شرق وأواسط أفريقا وأغلب البضائع ترد من بلاد الهند ويرد اليها العنبر والجلود والعاج والببغاء من أفريقيا والآبنوس من مدغسكر والاصداف من جزائر سيتشل

والمحلاَّت الاميرية والاهلية العمومية التي بها هي: ديوانا الجرك والميناء ومكتبا



الزنجيات المحجبات

البريد والتلغراف الانجليزي وثلاث محاكم شرعية سائرة على مجور الخلط والخبط لعدم معرفة قضاتها شيئاً من العلوم والمعارف بل من الشريعة الغراء ومحكمة القنصلية البريطانية وهذه تنظر في الدعاوى المهمة العظيمة والجنح والجنايات ودستورها أحكام قانون بلاد الهند ثم ديوان الوزارة وبه خزينة الحكومة وقلم تحرير الرقيق ثم مستشفى مناسب جداً وسجنان للاهالي والاجانب وديوان البوليس وحديقة صغيرة فاخرة للعموم تسمى حديقة فيكتوريا وبها أسد داخل قفص من حديد وتصدح في هذه الحديقة موسيقى الحكومة مرتين في الاسبوع ثم السراي السلطانية العظيمة وملحقاتها الكبيرة المخصصة للعائلة السلطانية ومطبعة كبيرة للحكومة تطبع بالافرنجية والعربية وتطبع بها جريدة أسبوعية أخبارية تجارية اسمها « غازيت زنجبار وشرق أفريقيا » وجريدة زراعية شهرية اسمها « شامبا » تطبع بالانجليزية والعربية الا أن عربيتها لا تفهم بالمرة نظراً لاختلال معناها وركاكة مبناها لانها مكتوبة تقريباً بلغة بلاد عرب عمان الدارجة ومع ذلك فهي غير مفهومة لدى ذات الاعراب لتلطيخ صفحاتها بالالفاظ الانجليزية والسواحلية ثم مكتب للبوسطة الفرنساوية وأربعة نوادي رياضية وأدبية للانجليز والالمان والهنود والفارسيين وثلاث صيدليات ومدرستان احداهما للمرسلين والغرض منها ديني محض والاخرى للهنود وهذه أشبه بكتاب صغير للاطفال وكنيستان للانجيليين والكاثوليك ونحو ثمانية جوامع ومحلات لوكلاء وقناصل الدول ومكاتب بعض شركات البواخر والتجارة ومطبعة هندية أهلية تصدر بها صحيفة أخبارية هندية وأربعة فنادق للغرباء

ومن العار الفاضح الشنيع أن كل هذه الجزيرة (بل هذه الدولة) ليس بها مدرسة أميرية أو أهلية يتعلم فيها أبناء البلاد

* * *

وأما لغة البلاد فتسمى السواحلية وتكاد تكون لغة التفاهم المنتشرة بين جميع القاطنين ، فالبريطاني يخاطب بها العربي وكذلك الهندي والفارسي بل بها يتخاطب العربي مع عربي آخر والهندي مع هندي آخر، ولذا كان من الضروري جداً لكل نزيل بتلك البلاد أن يتعلم تلك اللغة الهمجية حتى يتسنى له قضاء حاجاته، وبهذه اللغة ألفاظ كثيرة من لغات موزامبيق والعربية والانجليزية. وللتفكهة أذكر أعدادها من واحد الى عشرة مشيراً الى الالفاظ السواحلية بوضعها بين قوسين وهي : (موجا) واحد (ببلي) اثنين (تاتو) ثلاثة (إنا) أربعة (تانو) خمسة (سيته) ستة (سبأه) سبعة (ناني) ثمانية (تسأه) تسعة (كومي) عشرة، فترى ستة وسبعة وتسعة عربية والاخيرتان ينقصهما افصاح العين . ومن ألفاظها : (إنجو) تعالَ (نندازاكو) اذهب (كولا) كلْ (إمكاتي) خبز (كونوآ) اشرب (ماچي) ماء (إنديو) نعم (سيو) لا (ماسباه الخيري بانا) صباح الخير يا سيدي (كوهيري بيبي) بالسلامة يا سيدتي (وهذه تقال عند الانصراف) ولفظة بيبي تقال للانثى خادمة كانت أو سيدة وهلمّ. ولقد برع المرسلون في هذه اللغة حتى أنهم طبعوا قاموساً بالانجليزية والسواحلية وبالعكس ، وبما أنها مجرد لفظ بمعنى أنها ليست ذات حروف فتكتب عند الاوروپاويين بالحروف الافرنجية وعند الاعراب بالحروف العربية وقد كتبوا الانجيل بها وهو مطبوع بالحروف الافرنجية والعربية باللفظ السواحلي وكثيراً ما يكون الوعظ في الكنائس والخطب في بعض الاحتفالات بتلك اللغة الهمجية

***

وميناء هذه الجزيرة من اكبر مواني شرق أفريقيا وقلما تخلو من المراكب التجارية وقد أقيم أخيراً أمام السراي السلطانية على الشاطئ فنارعظيم يبلغ ارتفاعه

الفارسيون الوثنيون فى ناديهم

مائة قدم وينار بالكهرباء وقوة نوره ثلاثون ألف شمعة وقد ورد بغازيت زنجبار أنهُ أكبر فنار في مواني العالم أجمع ، وبهذه المينا مركب حربي انجليزي اسمه (باروسا) والغرض الاصلي منهُ مراقبة منع تجارة الرقيق ثم ثلاث بواخر صغيرة للحكومة المحلية وهي (نيانزا) وهي قاصرة على تأدية مظاهر الاحتفالات البحرية والرسمية وأخذ واعطاء الاشارات ما بين المينا والمراكب الداخلة و (باراوا) و (كاوه) وهاتان تجاريتان تمخران ما بين زنجبار وساحل أفريقيا وجزائر كومورو وسيتشل والقبودانية ومساعدوهم من الهنود والسواحليين ورئيسهم انجليزي

***

وأرض الجزيرة تروى بالامطار وهي مخصبة للغاية وأهم محصولاتها القرنفل الذي هو منبع ثروة الاهالي والحكومة التي لها منهُ ربع المحصول ، وشجرهُ كشجر التفاح ثم السمسم والشته وجوز الهند وشجر الاخير كالنخل تماماً وبها شيء كثير من الفواكه منها الموز ومنهُ نوع يبلغ طول الواحدة منهُ نحو ثلثي ذراع والقشطة والاناناز والجوافة والمانجو (المابيره) التي منها نوع تزن الواحدة منهُ رطلاً والبرتقال والليمون وقصب السكر وأصناف أخرى كثيرة لا تعرف في القطر المصري منها نوع اسمهُ (دوريان) وهو أشبه بهيئة الاناناز وأكبر منهُ حجماً ورائحتهُ كريهة جداً لا تطاق الا أن مذاقهُ لذيذ كمذاق القشطة ويعتبر عندهم أعظم الفواكه وأحسنها ،

ومن أزهارها الورد والياسمين . ومن خضاراتها الباميا والقرع والباذنجان والطماطم والخس والخيار والفجل والنعنع والكرفس والملوخيا . ويزرع هناك نوع من الجذور أشبه بالبطاطا وهو لغذاء العبيد ويسمى (موهوجو) وقد جرَّبوا هناك أخيراً زراعة الفانيليا فنجحت كل النجاح . ويوجد بهذه الجزيرة البقر والخيل والحمير والمعزى والغنم الواردة من أفريقيا وبلاد العرب والدجاج والبط والحمام ومن الاسف

ان الاعراب هناك يسمون الحمار « مصري »

***

والغذاء هناك يمكن حصره في ثلاث طبقات : الاولى للاوروباويين ، وغذاؤهم معلوم للجميع ، والثانية لباقي الامم على اختلاف طبقاتهم (ما عدا الزنوج الفقراء) وغذاؤهم لا يتعدى أصنافاً معلومة وهي الارز المطبوخ بعصارة جوز الهند وطعمهُ لذيذ جداً (ولذا يجب عليَّ أن أصف كيفية طبخهِ بعدُ) والارز المطبوخ مع السمك ثم الموز الاخضر المطبوخ بمرق اللحم أو الدجاج . وعلى ذلك فهم لا يأكلون الخبز الا نادراً لانهم يعتاضون عنهُ بالارز وفي الصباح يتناولون قليلاً من الشاي ، والثالثة للزنوج الفقراء وغذاؤهم من ذلك الصنف المسمى (موهوجو) وهو يدقّ ويطبخ فيكون أشبه بالثريد (العصيدة) والارز رخيص جداً وهو وارد من بلاد رانجون بالهند . وأما المياهُ فهي من عيون طبيعيةٍ بعيدة عن المدينة وتصل اليها في مواسير مركب عليها حنفيات والاستقاء منها مجاناً وهي نقية صحية

والآن أفي بوعدي في ايضاح طريقة طبخ الارز بجوز الهند وهي :

يؤتى بنصف جوزة ثم تبشر بآلة مخصوصة . والغرض أنها تكون كالجبنة الرومي التي توضع على المكرونة . ويوضع المبشور في وعاء وعليهِ قدر من الماء (مناسب لقدر الارز) ويعمل فيهِ عملية عصر العدس في وسط طبخهِ بمعنى أنهُ يعصر مراراً حتى يصير الماء بلون اللبن ثم يستغنى عن تفل الجوز . وبعد غسيل الارز كالمعتاد يطبخ بذلك الماء الابيض وعليهِ قليل من الملح فيكون طعمهُ ورائحتهُ أحسن من الارز المفلفل ومَن يجرّب يشهد بصدق القول

***

أما الطقس فعلى قسمين : شتاء وهو من نوفمبر الى ابريل وتهطل فيهِ الامطار

الغزيرة ويكون فيه الهواء لطيفاً بارداً نوعاً يقارب طقس أيام الربيع بالقطر المصري . وحرّ وهو من مايو الى اكتوبر والحرارة فيه لا تزيد عن درجة حرارة القطر المصري في شهر يوليو وأغسطس وربما كانت أخف مع أن البلد واقعة في المنطقة الحارة وما ذلك الا لان الجزيرة مكسوّة بالخضرة والاشجار الباسقة الوارفة الظلال وهذا فضلاً عن أنها محاطة بالمياه من كل جهة.

* * *

ومن الامراض الشائعة فيها الادره (القليطة) وداء الفيل (ورم الساق والقدم) ونوع من الجرب البسيط وهذا مضمون الشفاء في مدة وجيزة بخلاف البليتين الاوليتين اللتين لا تصيبان الا الاهالي المولودين هناك . والنزيل لا يخشى الا الحمى ، ومع ذلك فهي ليست من الحميات القتالة خصوصاً اذا راعى الاعتدال في المآكل والمشرب والشروط الصحية الاخرى

* * *

والعملة المتداولة هنالك الجنيه الانجليزي وأجزاؤه ، والروبية ونصفها وربعها وقيمتها بالعملة المصرية ستة قروش صاغ ونصف لان الجنيه يساوي خمسة عشر روبية . ثم قطعة نحاسية تشبه العشرة الخردة القديمة وتسمى (پيسه) وقيمتها أقل من المليم بشيء قليل وهذه منها ما هو منقوش عليه لفظة « زنجبار » أو « سلطان برغش بن سعيد بن سلطان حفظه الله » ومنقوش على هذه وتلك من الجهة الاخرى رسم ميزان ورقم السنة التي ضربت فيها . ويوجد محلان لاستبدال النقود الذهبية والفضية مهما كان نوعها بعملة البلاد الا أنها تصرف بقيمة أقل من قيمتها الاصلية.

ولقد يجمل بي أن اكتفي الآن بما ذكرته عن زنجبار وأهاليها وما بها مؤجلاً

بقية الكلام ان كان هناك بقية لفرصةٍ أخرى والآن أعود الى شرح حالي هناك

***

أقمتُ أياماً في تلك الاودة مفكرًا ولا عمل لي سوى أني كنتُ أحيانًا أشغل نفسي باحضار ما أريدهُ من الطعام وتهيئتهِ بنفسي ثم أتمشى بعد العصر ولقد كنتُ تعرّفتُ في بحر هذه الايام بتاجرٍ كبير من مصر وأصلهُ من حلب الشام يدعى الشيخ عبد الرحمن جمالي ورجل يمنيّ الجنس زنجباريّ المسقط وأصلهُ من سلالة سلاطين جزائر كومورو يدعى السيد منصب بن علي وهذا خطيب وإمام المسجد الشريف الاكبر . ومن غريب ما يحكى عنهُ أنهُ أعطي موهبة التصوير مع أنهُ لم يدخل مدرسة ولم يحضر على معلم سوى أنهُ تعلم مبادئ الشريعة في احدى الزوايا وأخذ يطالع من تلقاء نفسهِ اللغة العربية وأصول الشريعة حتى صار على معرفةٍ مناسبة ثم رأى في نفسهِ ميلاً قويًا الى رسم كل ما يراهُ ويستحسنهُ بقلم من رصاص على قرطاس حتى اذا اشتهر أمرهُ وبلغ مسامع أحد سلاطين زنجبار السالفين أراد أن يمتحنهُ فسلمهُ رسم مركب حربي ليأتي بمثلهِ وأحضر لهُ الالوان وبعض الآلات التي لم يكن للسيد منصب أقل درايةٍ بالعمل بها لعدم سبق مسكها ببنانهِ قبل هذه المرة ومع ذلك لم يستصعب العمل بل أخذ يجرّب هذا القلم وذاك اللون وأخيرًا اشتغل حتى رسم ذلك المركب الحربي الدقيق ولم يكتفِ بذلك بل رسم الكتابة التي في أسفلهِ ثم قدمهُ الى السلطان الذي حين رآهُ اندهش من عظم الانقان حتى انهُ قال لقد يصعب على الانسان أن يميز الرسمين (الرسم المنقول من المنقول عنهُ) ومن ثمّ أغدق عليهِ نعمهُ وأمر لهُ بآلات كاملة للرسم وعندئذٍ ذاع صيت الرجل وخصوصاً بين الاوروباويين الذين عرفوا بقدرهِ حتى انهم لا يزالون يكلفونهُ بنقل بعض الرسوم ، وكثيرًا ما يعمل مناظر ورسومات مثل تكبير

الفوتوغراف أو زخرفة أوراق المايدات أو الملاحق أو مناظر خلوية وما أشبه ويبيعها للاوروباويين بثمن عالٍ — فللهِ درّه

وتعرّف بي أيضاً شابٌّ من المولدين بزنجبار واسمهُ محمد ابرهيم وهذا وجد فيهِ ميل شديد الى تعلم الموسيقى فألحق عاملاً بسيطاً في فرقة الموسيقى السلطانية ولما أخذ في ممارسة عملهِ تشبث بكل آلات النفخ فأتقنها ولم يكتفِ بذلك بل تطاولت يداهُ الى ذوات الاوتار ففاق كل أقرانهِ حتى صار الآن رئيساً لجوقتي الموسيقى والاوتار

فكنتُ أمضي أغلب أوقاتي مع الثلاثة المشار اليهم ، ولما كنتُ درستُ أحوال البلد رأيتُ أن أقدم نفسي الى قنصل جنرال بريطانيا (هو السير ارثر هاردنج الذي كان سابقاً سكرتيرًا للورد كرومر بمصر) حتى يرى لي عملاً أتحصل منهُ على أسباب العيش فما كان من جنابهِ الا أن كتب لي جواباً للجنرال الانجليزي الموظف في حكومة زنجبار بصفة وزير عظيم وكانت النتيجة بعد التردد الى الاخير عدم اجابة الطلب . وبما أني رأيت من السير أرثر عند مقابلتي لهُ المرّة الاولى لطفاً ورقةً وميلاً لمساعدتي عدتُ اليهِ ، وبعد أخذٍ وردٍّ أشار عليّ بالعود الى بلادي بما أن نطاق الاشغال في هذه الجهات ضيقٌ جدًّا ، فأجبتهُ اذا كان الامر كذلك فتفضل بارسالي الى مستعمرة اوغاندا . واذ كان قد علم مني بسبق استخدامي في سكة حديد بايرا قال : اذا كنت لم تتحمل معاملة زملائك في بايرا ومتاعب العمل فهل تزعم أنك تتحمل الوجود بأوغاندا بين أولئك الاقوام العسكريين والمخاوف الكبيرة خصوصاً وأن المسافة من هنا الى هناك يقطعها المسافر على القدم في ثلاثة شهور فرأيت أن لا مشاحة في قولهِ ثم أردف كلامهُ قائلاً : وأرى أن من الصواب الآن ان تعود الى وطنك ، ومن جهة مصاريف السفر فاني مستعد

لمخابرة اللورد كرومر عنك تلغرافياً لارسالك على حساب الحكومة المصرية

هنا وعلا وجهي الاصفرار واعترى فؤادي الاضطراب ولم أستطع أن أفوه ببنت شفةٍ برهةً من الزمن ومع أنهُ لح عليّ ذلك الا أنهُ أعاد هذا القول. فقلت لهُ اسمح لي يا جناب المعتمد أن أقول اني أُفضل الموت جوعاً عن قبول هذا الامر. فقال: اذن ماذا تعمل؟ أجبتهُ اني رجل غير مقعدٍ ولاضرير ويمكنني أن أتدبر في أمري ثم انصرفت من أمامهِ مضطرباً من قولهِ الذي ساءني من حيث قصد الاحسان

ثم خطر ببالي ان اكتب لحاكم مستعمرة شرق أفريقيا الالمانية بمدينة دار السلام فكتبت ما كتبتهُ ووضعتهُ بمكتب البريد

وبعد بضعة أيام علمتُ أن قد تعيّن حاكم جديد لتلك المستعمرة ولم يصل لمركزهِ بعد، ولذا فقدتُ أمل المجاوبة على كتابي وكان هذا في أواخر شهر يناير

ولما رأيتُ أن ما بيدي لا يزيد عن أربعة جنيهات أخذت أُفكر في ما عساهُ أن يكون بعد نفاد هذا المبلغ وما وراء ذلك المستقبل المكفهرّ جوّه فأعياني الفكر ولم يكن لي مناص من ملازمة الفراش

وفي صبيحة يوم الاحد الموافق ٤ فبراير بينما كنت بغرفتي سمعت من يقرع بابي ويناديني واذ هو رئيس الموسيقى ومعهُ شابٌّ آخر حسن البزّة وعلى عينيهِ عوينات ذات أسلاكٍ ذهبيةٍ فرحبتُ بهما وأجلستهما ثم عرفتُ أن ذلك الشاب هو ناظر الخاصة السلطانية. وبعد أن حادثني قليلاً أخبرني أن جلالة السلطان يريد مثولي بين يديهِ في عصر اليوم. فأجبتهُ بأن لي الشرف الكلي والسرور العظيم لمثولي لدى الاعتاب الشريفة ولكن هل من باعث على ذلك؟ فقال انهُ لا يعلم السبب وما هو الا رسول من قبل مولاهُ

ولما تحفز للقيام مع رفيقهِ سألتهُ عن مراسم المقابلة فأعلمني بها وانصرف

وبعد انصرافهما اشتدت عليّ عواصف الفكر عن سبب طلبي هذا وعما اذا كان عن ضرٍّ أو سلامٍ . ولما كنت كتبتُ قبلاً عن زنجبار بجريدة مصر بعدد ١١٨٦ بتاريخ ٥ يناير سنة ١٩٠٠ وكان قد ورد لي ذلك العدد أسرعتُ باحضاره وتلوته ثانية بكل تمعن خشية أن يكون زلّ بي القلم الى ذكر شيء لم يرتح سموّه من ذكره فلم أجد شيئاً من هذا القبيل بل اني أمدح السلطان كثيراً في تلك الرسالة ، وما اطمأن خاطري قليلاً الا وعاودتني الوساوس وقد خطر ببالي أن سموّه ربما كان ممن لا يحبون وجود مثلي متحككاً بالجرائد في بلاده ، وعلى ذلك فان سموّه سيضطرني الى الخروج من بلاده والرحيل عنها ، ولكن لو كان الامر كذلك لما احتاج الحال الى مثولي بين يديه بل كان يكفي أن تصدر أوامره لمن ينفذها عليّ .

وعند العصر تهيأت للمقابلة وقصدت السرايـ السلطانية وأرسلت بطاقتي مع أحد الحجاب الى ناظر الخاصة فنزل في الحال وأخذ بيدي وصعد بي ، فلما رأيت الحرس والحجاب الكثيرين واقفين على باب قاعة الاستقبال اعتراني شيء من الاضطراب كما هي العادة عند مقابلة عظيم ، ثم دخلت واذ بجلالته جالس في صدر المحل فأديتُ اشارات الخضوع والاحترام دون أن أنبس بكلمةٍ ووقفتُ مبتعداً عن الكرسي الملوكي بنحو خمسة أمتار فأشار عليّ بالجلوس مبتسماً وعند جلوسي قال « اقترب » مشيراً بيمينه الى المكان الذي اكون فيه فاقتربت ثم قال (كيف أحوال البلاد) فأجبتُ بخير يا مولاي أدام الله جلالتكم ، وبعد نحو أربع دقائق كان في أثنائها يتفرس فيّ أشار الى أحد رجاله وبعد أن أمره بما أمر قال لي سموه (استصحب هذا الرجل) فأبديتُ علامات الخضوع والطاعة وتقهقرت (بانتظام) وتبعت الرجل وجلست أمام مكتبةٍ وهي مع مكاتب أربعة عمال

آخرين بذات قاعة الاستقبال العمومية التي بها سموّهُ ثم أخذ الرجل يسألني عن معارفي وأخيرًا ناولني قرطاسًا وقلمًا وقال لي أن اكتب سطرًا مما يخطر ببالي دون أن اتكلف التروّي وانتقاء الالفاظ. فخططتُ هكذا — لقد قرّت عيني وانشرح صدري بمثولي لدى الاعتاب الشريفة ومشاهدة سنا طلعة جلالة مولاي الافخم والسلطان المعظم حفظهُ الله وأدام سلطنتهُ آمين —

فلما قرأ ما كتبت تبسم قائلاً: ان المصريين أذكياء للغاية فصمتُّ وقلت في نفسي: وأين هذا الذكاء الذي رآهُ مني. أما هو فقام وقدم القرطاس الى صاحب السموّ ولما تلاهُ رأيتهُ يتبسم. وبعد ذلك عاد الرجل (وهو الباشكاتب) وأخبرني ان أعود في الغد عند الساعة كذا قبل الظهر

وفي الميعاد المحدد حضرت الى السراي وبعد أن قابلني ناظر الخاصة أجلسني امام قاعة مكتبة السلطان وبعد قليل خرج منها الجنرال الانجليزي (الوزير الاكبر) وأخذ يستفهم مني عن كل أحوالي وأخيرًا ناولني قلم رصاص وقرطاسا وأمرني أن اكتب ملخص حكايتي من عهد خروجي من مصر للآن. فكتبت وبعد أن اطلع جنابهُ عليها قال انهُ سيترجمها على مسامع السلطان وبعد قليل عاد وأمرني أن أحضر لديهِ في ديوانهِ بعد الظهر حتى يخبرني مدير الجمرك في اللغة الفرنساوية وعلى ذلك توجهت لديوانهِ في الميعاد وكان لديهِ ذلك المدير فأخذني هذا الى مكتبهِ وبعد أن اختبرني حرّر جوابًا بالنتيجة لجناب الوزير وسلمهُ لي فلما قابلتهُ سلمتهُ المكتوب وقال لي أن احضر باكرًا فترددت لديوانهِ في اليوم الثاني ولمشغوليتهِ لم أتمكن من مقابلتهِ. وفي غد ذلك اليوم بينا أتمشى في الطريق رآني أحد سعاة ديوان الوزير وأخبرني أن لي تذكرة من جنابهِ مودعة عند ذلك التاجر صاحبي لعدم معرفة أحد بمحل اقامتي فذهبت اليهِ واستلمت التذكرة واذ مضمونها اني سأكون ضمن

معية جلالة السلطان فتوجهت للسراي وقدمتها لناظر الخاصة وبعد أن قابل سموّه عاد وأخبرني أن أحضر في الغد لمباشرة عملي ثم نبه على جميع العساكر والحجاب بأن يسمحوا بدخولي السراي وصعودي الى فوق دون استئذان من أحدهم . وقد عرّفني مواعيد العمل واذ هي من الساعة التاسعة الى العاشرة صباحاً ومن الرابعة الى الخامسة مساءً بمعنى أن مدة العمل يومياً ساعتان فقط — فما أحسن هذا العمل وما ألطفه

الفصل التاسع

زنجبار

«عيد الفطر ، الاستخدام ، السلطان ، السراي السلطانية»

كان عيد الفطر المبارك بعد أن مضى عليَّ بزنجبار شهران ، وبما أن الحكومة تحتفل بهذا العيد رسمياً رأيت أن آتي على وصفهِ منقولاً عن رسالتي لجريدة المؤيد المدرجة بالعدد الصادر في ٢٥ ذي القعدة الموافق ٢٦ مارث سنة ١٩٠٠ نمرة ٣٠٢٣ مع تعديل طفيف لعدم تذكري ترتيب ذلك الاحتفال تماماً

كان آخر رمضان المعظم هنا يوم الخميس فما دنت شمس ذلك اليوم نحو المغيب الأ واحتشد ألوف من الناس في ميدان السراي السلطانية حيث كانت العساكر مصطفة صفوفاً والاعلام السلطانية الحمراء تخفق على سارياتها الممتدة على شاطئ البحر حتى اذا غربت الشمس وانهارَ النهار دوت المدافع وأخذت فصيلة من العساكر في اطلاق البنادق على التوالي ثم صدحت الموسيقى ، كل ذلك كان ايذاناً بختام شهر الصوم المبارك وكان المنظر مهيباً جداً والفرح شاملاً الجميع وكانت السراي مزينة زينة باهرة تتألق من داخلها وحواليها الانوار الكهربائية والمصابيح الوضاءة المنسقة على أشكال هندسية بديعة ، وتقابلها في البحر زينات ثلاث بواخر تبهر الابصار بديع أشكال أنوارها

وفي سحر يوم الجمعة أطلق مدفع الصباح ثم صدحت الموسيقى بالسلام السلطاني اجلالاً لسموّه واكراماً للعيد السعيد وبعد أن أدى جناب الامير خالد سنة العيد

في المسجد الشريف نيابة عن سموّ شقيقه السلطان أطلقت المدافع من المينا والشاطئ وبعد ذلك ابتدأت التشريفة العربية وكان السلطان يقابل الوفود فيبسطون اكف الدعاء والتبريك وبعد تمام تلك الرسوم مدت الموائد لاولئك الالوف المحتشدة فأكلوا ما اشتهته أنفسهم وعند خروجهم كانوا يتعطرون بروائح الورد والياسمين الزكية ثم دعوا للحضرة الفخيمة بالعز وطول البقاء

ولما انسلخ النهار وأقبل الليل بديجوره أشرقت أنوار زينة السراي ضعف ما كانت عليهِ في الليلة الماضية ثم أخذت الموسيقى تصدح بألحانها المصرية فتشجي القلوب رقةً وتستهوي النفوس هوًى وبعد ذلك تلتها فرقة ذوات الاوتار المطربة ثم الرقص اليمني بالسيوف وكانت أطباق الحلوى والكؤوس السكرية العطرية تدور على كل الحاضرين يديرها ندمان عليهم حلل مزركشة تسحر الالباب ، وعند منتصف الليل أخذت الالعاب النارية دورها فكانت الاسهم تصعد في الفضاء كأنها تحاول أن تصيب كبد السماء ثم تنفجر فتسطع ناثرة دراريها على رؤوس الاشهاد وهكذا انفض الاحتفال على مثل هذا الرواء الجميل

وفي صبيحة السبت جرت تشريفة الاجانب في السراي العامرة التي كانت أخذت زخرفها وازينت ودرجها مكسوًّا بأفخر الطنافس وأثمنها ورجال الحرس الهنود بمزاريقهم منتشرين عن اليمين وعن الشمال ثم أقبل وكلاء وقناصل الدول واحداً فواحداً وكل منهم يصحبهُ اكابر رعيتهِ ثم قبودان وضباط مركب حربي ايطالي كان راسيًا في المينا ، وكانت العساكر مصطفة في ميدان السراي والموسيقى تصدح بنشيد كل دولة عند دخول وخروج وكيلها وانتهت هذه التشريفة على أحسن حال وأتم نظام

وفي أصيل ذلك اليوم الذي هو اليوم الثاني من العيد عادت العساكر واحتشدت وثلاث فرق الموسيقى والخدم والحشم والالوف من المتفرجين

امام السراي حتى كاد ذلك المحل الرحيب يضيق بهم وبعد نحو ربع ساعة انتظم عقد الموكب السلطاني وسار تتقدمهُ فرقة الموسيقى التي على النمط المصري وخلفها رصيفتاها ثم العساكر فالاعراب المتطون صهوات الخيول المزدانة بالسروج المزركشة يقودها سواسها وكلهم بزيّ أحمر ثم عربة السلطان التي أهداها لسموّه ملك ايطاليا (السابق) تجرّها أربعة من الجياد الشهب وعلى يسار سموّه جناب الجنرال وليم ماتيوس الوزير الاعظم ويحيط بالعربة نحو عشرين من فرسان الهنود ثم عربة جناب الامير خالد شقيق السلطان فعربات أخرى كثيرة تقل الحاشية والامراء وهكذا سار الموكب بأبهتهِ يطوف المدينة بين آلاف المتفرجين حتى وصل الى الشارع الكبير (شارع الاجانب) وهناك وقف هنيهة فانفرجت تلك الجماهير على جانبي الطريق ثم أخذ الفرسان الحرس يلعبون بالمزاريق والسيوف وهم على متون الخيل ألعاباً غاية في الفروسية وبعد ذلك عاود الموكب المسير الى أن وصل الى السراي وكانت الشمس اذ ذاك تودع الشرق الفها ثم ارتقب سموّه ترجل حاشيتهِ من حرم مصون وأميرات كريمات وغيرهنَّ وبعد ذلك صدحت الموسيقى بالسلام وانصرفت تلك الجموع وهذا كان ختام حفلة عيد الفطر الرسمية في زنجبار

ولا يجري مثل هذا الاحتفال في عيد الأضحى بل يقتصر فيهِ على استعراض العساكر امام السراي ومد الموائد لجميع المسلمين المعيدين على سموّه كما يكون في عيد الفطر

وأما من جهتي فاني توجهتُ للسراي في اليوم الثاني حسب قول ناظر الخاصة الذي قدمني الى العمال زملائي ثم جلستُ على الطاولة التي تخصصت لي وهي في ذات المحل المعد للاستقبال اليومي الغير رسمي وبعد بضع دقائق شرف السلطان وجلس على عرشهِ يرمق الجميع بأنظاره وبعد برهة ناولني الناظر ورقة واذ هي اذنٌ بخط

سموّه للصراف عن مبلغ كذا يصرف لي بصفة انعام ثم أخذت في مباشرة عملي من مثل ترجمة دفتر طلبات السراي من الخارج وترجمة غازيت زنجبار ليقرأها سموّه أو ترجمة تلغرافات روتر اليومية وفي اليوم الثاني سألني الناظر عن قدر الماهية التي تكفيني وأعلمني بجعالات العمال الآخرين مثل الباشكاتب والمترجم الاول الذي هو في خدمة السلاطين من نحو ثلاثة عشر سنة والصراف وأكثرها لا يزيد عن ثمانية جنيهات (اذ أن حساب الماهيات هناك وغيرها بالروبية وليس بالجنيه فيقال ماهية فلان مائة روبية مثلاً) ولما كان مضى عليَّ بتلك الجزيرة أكثر من شهرين رأيتُ أن معدل مصرفي لا يقل عن عشرة جنيهات وعلى ذلك أخبرتهُ بهذه العبارة وبعد قليل عاد وقال لي وان كانت هذه الماهية أكثر من ماهيات زملائك الذين هم أقدم منك في الخدمة ولكن طبقاً لارادة مولانا سيعطى لك ما طلبت ، عند ذلك ندمت ندامة الكسعي وقلت في نفسي اني ما دمتُ متبعاً قول الحق فلا أمل لي في الارتقاء مادياً ثم أخذتُ في تعنيف نفسي على عدم طلبي أكثر من ذلك

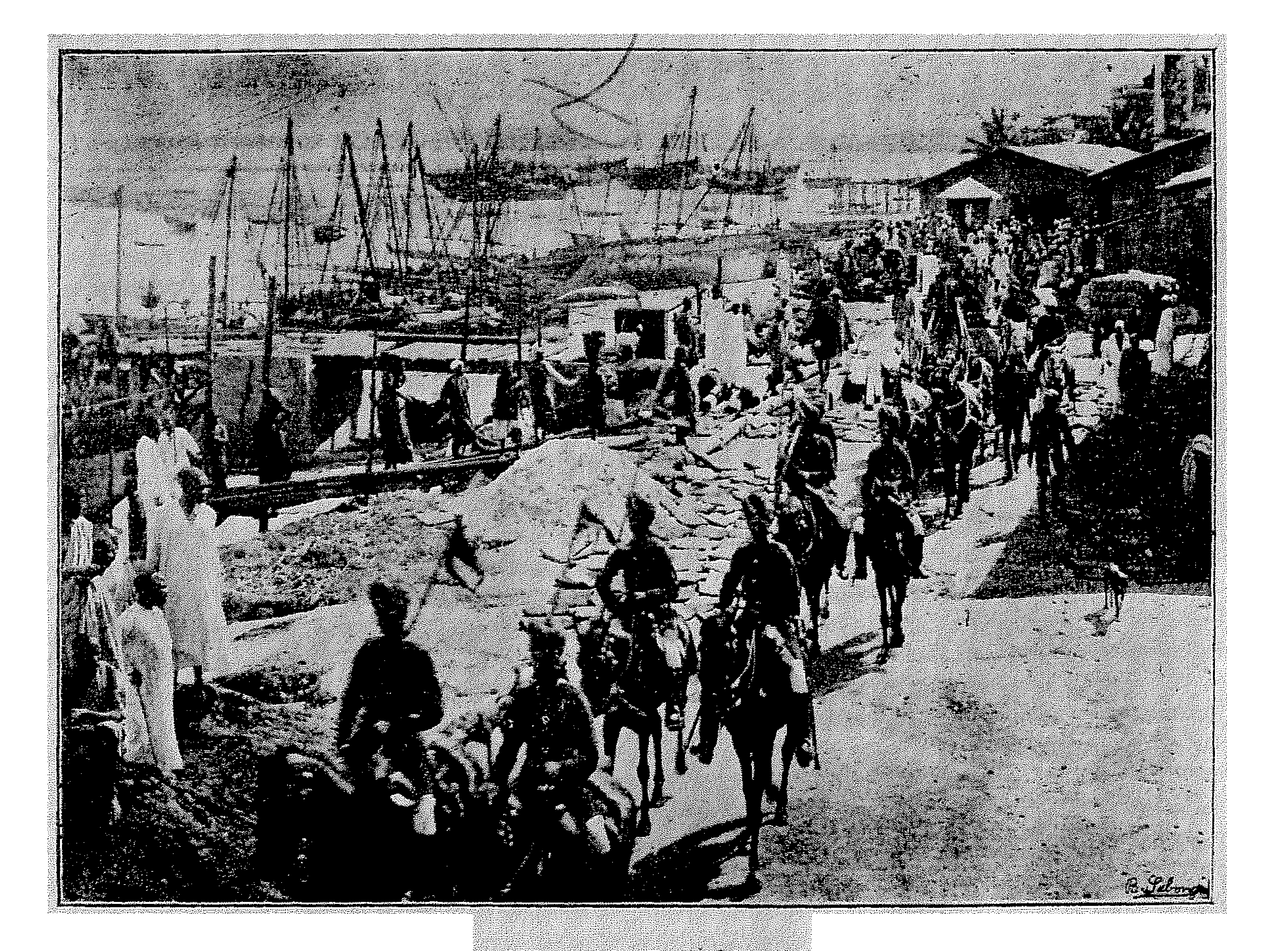
ومن ثمَّ استأجرت منزلاً مناسباً وخادماً وأخذتُ في تعلم لغة البلاد حتى يسهل عليَّ الوجود بين سكانها وقد أخذ الناس يتسابقون الى التعارف بي اذ أنهم ميالون كثيراً للتقرب ممن يسمعون عنهُ انهُ مصريّ الجنس محبون لسماع الحديث عن تلك البلاد ، ولقد كانوا معجبين بلبسي ووضع الطربوش على رأسي وتسوية شعري (اذ كلهم على الاطلاق يحلقون شعورهم) على أن الاغرب من ذلك كلهِ انني اذا استعملتُ رباط رقبة اسود قالوا هذا هو المليح أو رأوا زرة طربوشي متجهة للخلف قالوا هذا هو الصحيح وهكذا كانوا يقلدونني في سفاسف الامور لشدة ميلهم الى الجنس المصري الذي يلقب عادةً عندهم على وجه العموم بالتركي لانهم لو قالوا (المصري)

لحصل التباس لتسمية الحمار عند أعراب بلاد عمان بلفظة مصري كما ذكرت آنفاً

***

علم القراء أن تلك الجزيرة وملحقاتها مستقلة وهي تحت حماية بريطانيا وان حاكمها أمير عربي يطلق عليهِ لفظة سلطان وهو من سلالة أمراء العرب الذين فتحوا هذه البلاد وقد ورد ذكرهُ كثيرًا في ما سبق ولكن للآن لم أذكر شيئاً عن شخص سموّه وصفاتهِ وللاتيان على ذلك أكتفي بتلخيص ما كان درج عنهُ في جريدة المؤيد ضمن رسالتي المدرجة بالعدد الصادر في ٢٦ مارث سنة ١٩٠٠ بنمرة ٣٠٢٣ مضيفاً اليهِ القليل

فهو سموّ السيد حمود بن محمد بن السلطان سعيد رحمهُ الله الذي زرع القرنفل في زنجبار) وقد وُلد السيد حمود سنة ١٢٧٠ هجرية بمدينة مسقط عاصمة مملكة عمان وجلس على أريكة زنجبار يوم الخميس الموافق ١٧ ربيع الأوّل سنة ١٣١٤ وذلك عقب حصول ثورةٍ أدّت الى انقسام الاهالي الى حزبين . وتحرير الخبر أن الامير خالد بن السلطان برغش قام مطالباً بكرسي المملكة بعد وفاة السلطان السابق رغماً عن أنف دولة بريطانيا التي شق عليها الامر وكبر في عينيها فرأت أن تقنعهُ بالتي هي أحسن وأن هناك مَن هو أولى منهُ بالملك وهو السيد حمود لكونهِ اكبر منهُ سناً فاحتجّ بأن السيد حمود لم يكن والدهُ سلطاناً أما هو فابن سلطان ولم يرضخ فأعلنتهُ بضرب الجزيرة وأعطتهُ مهلة يومين فما كان منهُ الاَّ معاندتها عملاً بآراء المفسدين الذين التفوا حولهُ ، فجمع الاهالي من أعراب وزنوج وسلحهم وأوقفهم متأهبين للقتال تجاه ثلاث مراكب حربية انجليزية كانت راسية اذ ذاك في الميناء ، ونحو الساعة التاسعة صباحاً من يوم الخميس ١٧ ربيع الاول سنة ١٣١٤ حيث كان انتهاء المهلة في تلك الساعة أرسل الاميرال يعلنهُ بأنهُ سيطلق قنابلهُ مع عودة



الركب السلطاني

الرسول فما كان من السيد خالد الا المكابرة والاصرار على العناد اذ أنهُ قال للرسول اننا مستعدون لحماية بلادنا فافعلوا ما تشاؤون ، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون ، فما عاد الرسول الاَّ وصوَّبت احدى المراكب الانجليزية قنابلها على مركب حربي لحكومة زنجبار فأغرقتهُ في الحال ولا تزال ساريتاهُ مرتفعتين للآن على سطح الماء ، ثم وجهت قنابلها الى السراي السلطانية ، وفي الحال فرَّ السيد خالد هاربًا ملتجئًا الى الوكالة الالمانية ، وعندئذٍ نزلت العساكر البريطانية الى البرّ ونودي بالسيد حمود سلطانًا . أما خالد فنقلتهُ ألمانيا الى مدينة دار السلام عاصمة مستعمرتها ولا يزال بها لغاية الآن تنقدهُ حكومة المانيا مبلغًا يعيش بهِ

* * *

وسموّ السيد حمود طويل القامة سمين الجسم قمحي اللون مستدير الوجه حلو العينين مهيبٌ في مرآه الاَّ أنهُ يرى أحيانًا باسمًا وهو محبوب من الاجانب اكثر من سواهم ميال الى تقليد المعيشة الاوربا وية المنزلية وربما كان أول سلطان عربي يستعين على الاكل بالشوكة والسكين ، ومن دأبهِ أن لا يعوّل في أعمالهِ الخصوصية على الخدم والحشم أسوة اكثر ملوك الشرق بل انهُ يراقبها بنفسهِ ويدبرها تدبير مقتصدٍ ويحضر يوميًا في قاعة ديوانهِ الخصوصي حيث يقابل الاكابر والاعيان وينظر في المنازعات والمشاكل ويسوّيها بطريقة عرفية عادلة وهو الرئيس العامل للمحكمة الشرعية العظمى ثم هو لا يخرج من قصره الا لترويح النفس ورياضة الجسم في منتزههِ الخصوصي الكائن بعيدًا عن المدينة في المزارع على شاطئ البحر وهناك يقيم بعض أيام . أما اذا كان بالمدينة فلا يخرج الا كل يوم جمعة بعد العصر فيسير بركبهِ المهيب حيث يحيط بعربتهِ التي تجرها أربعة جياد نحو ثمانية عشر من فرسان الهنود ويحيي في طريقهِ كل المارة باحناء الرأس قليلاً كما هي عادتهم ،

ثم ينام نحو الساعة الخامسة عربي ليلاً ويستيقظ حوالي الساعة واحدة نهارًا وبعد استعدادهِ للخروج من قاعة النوم يتناول الفطور وينظر في خصوصياتهِ ثم يحضر في قاعة الديوان أثناء وجود العمال وبعد ذلك ينتقل الى مقاصير الحرم المصون (وكلهنَّ من أهالي زنجبار أو المولدات بها) للنظر في حاجتهنَّ وزيارة أنجالهِ واكبرهم (الامير علي) الذي أرسل لانجلترا للدراسة بها ، ثم يعود ويتناول الغداء وحدهُ وينام حتى العصر ولما يستيقظ يشرف الديوان كالصباح ثم يتمشى في ساحة قصره وعند غروب الشمس تماماً تحضر احدى فرق الموسيقى وتعزف السلام وتنصرف وقد يزورهُ جناب شقيقهِ أحياناً بعد الغروب فيمضي لديهِ وقتاً من الزمن . أما الجنرال الوزير(١) فكثيرًا ما يجتمع بسموّه في بحر النهار ليعرض على مسامعهِ مهام الاعمال وأخذ آراء وأوامر سموّه عنها . أما معارفهُ فقاصرة على العربية التي درس منها شيئاً مع الشريعة الغراء بمكة المشرفة اذ أقام بها نحو ثلاث سنوات لما كان في شرخ الشباب ثم السواحلية وهي لغة محادثتهِ مع جميع الاجانب على اختلاف أجناسهم وبها يتحادث مع الوزير وهو ذو ذكاء فطري عجيب ، وترد لسموّهِ أغلب الجرائد العربية المصرية والسورية حتى الساقطة منها ولكنهُ لا يقرأها البتة بل توزع على العمال حتى اذا كان بها شيء عن زنجبار أو أمر غريب في الطبيعة توضع عليهِ علامة وتقدم لسموّه فيقرأ المرغوب منها

ولجلالتهِ راتبٌ شهري من الحكومة وقدرهُ خمسة وثلاثون ألف روبية عبارة عن ألفين وثلثماية ثلاثة وثلاثين جنيهاً ومن هذا المبلغ يصرف المرتبات التي يعينها للامراء والاميرات نسل السلاطين ولهُ غير ذلك ايراد وافر من المزارع والاملاك

(١) هو السير لويد وليم ماتيوس توفي في ١١ أكتوبر سنة ١٩٠١ والكتاب تحت الطبع



جلالة السيد حمود بن محمد سلطان زنجبار
(عن الفوتوغراف المهدى من جلالته الى المؤلف)

التي صودرت إبان الثورة عند توليته فصارت ملكاً لهُ وهو مطلق التصرُّف في الاعراب والزنوج ولكن الى حدٍّ معلوم فيأمر بالجلد والطرد من البلاد والحبس والغرامة وكل ذلك بمجرد كلمة واحدة تخرج من فمهِ

ويعتبر الآن شقيقهُ الامير خالد بن محمد وليّ العهد نظرًا لصغر سن نجلهِ الامير علي اذ بحسب وصية المغفور لهُ السلطان سعيد جد السلطان الحالي يكون الملك للارشد فالارشد من العصب

ومن لطيف أعمالهِ أنهُ لما رأى أن بريطانيا مصممة على منع الرقيق وتحرير الارقاء دفعة واحدة وان الاعراب معارضون كل المعارضة قدح زناد فكرته وأظهر ذكاءهُ الفطري حتى أتى بما أرضى دولة بريطانيا وما أخلد الاهالي الى السكينة فقد وافق على منع تجارة الرقيق من جهةٍ وأمر ببقاء الارقاء الحاليين لدى ساداتهم من جهةٍ أخرى بشرط أنهُ اذا أغضب العبد سيدهُ أو بالعكس يرفع أمرهما للقضاء الذي يأخذ بناصر المظلوم منهما وتكون النتيجة على الاغلب تحرير رقبة ذلك العبد، ولو لم يأتِ سموّهُ بهذا الامر لفسد حال السادة والعبيد معاً اذ تبور أرض السيد وييبس زرعهُ ويجف ضرعهُ كما وتتعسر وتتعذر على العبد معيشتهُ بعد تركهِ فلاحة أرض سيده حباً في لفظ الحرّية الحلوة اسماً والمرّة فعلاً على مثلهِ

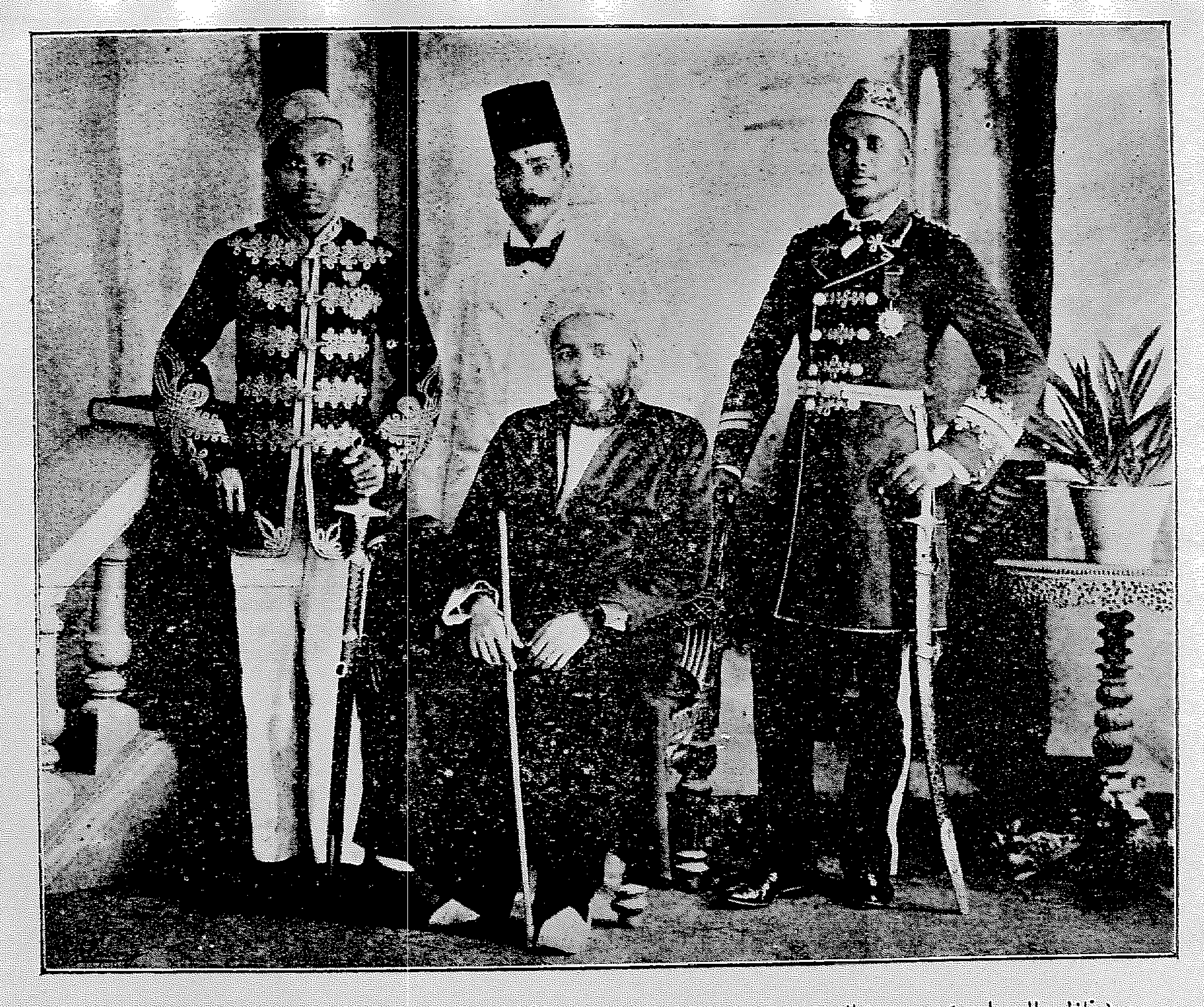
***

وللسلطان ثلاث فرق للعزف والطرب ، الاولى فرقة الموسيقى التي على النمط المصري وهي مؤلفة من اثنين وثلاثين نفرًا كلهم من السواحلية وقد كان يرأسها حديثاً رجل مصري وأصلهُ جاويش في موسيقى السواري المصرية على عهد المغفور لهُ سعيد باشا . أما الآن فرئيسها ذلك الزنجباري واسمهُ الميجر محمد ابراهيم وهذه تصدح بألحانها المصرية المشجية يوماً بعد الآخر وقت العشاء تحت السراي

حيث تلعب اولاً الدور على الموسيقى ثم يغنونهُ بالعربية وأغلب أولئك المغنين لا يفهمون ما يقولون لعدم فهمهم العربية ، وأدوارهم مصرية مثل (فريد المحاسن بان) و (تيهك عليَّ اليوم بسنين) وما شاكلها من الادوار القديمة . والثانية فرقة ذوات الاوتار وأنفارها زنوج ورئيسها هو رئيس الاولى وعملها يكون عند الظهر عند تناول السلطان الغداء . والثالثة فرقة موسيقى من هنود جاوى المسيحيين وأدوارها كلها افرنجية . وجلالتهُ لا تصبو نفسهُ الا الى الفرقتين الاولتين لانهُ يشغف كثيرًا بالالحان المصرية

* * *

واذا كان السلطان بالمدينة تجري تشريفة رسمية للاعراب دون سواهم في صباح كل يوم جمعة . في الساعة الثالثة نهارًا تصطف العساكر وتتقدمها الموسيقى في ميدان السراي ثم ينزل السلطان من الدور الاعلى الذي ينام فيهِ فتعزف الموسيقى بالسلام ثم يقابلهُ الامراء والعمال . وبعد أدائهم التحية والخضوع يدخل قاعة الاستقبال الكبرى ووراءهُ الامراء فالعمال . وكلٌّ من الامراء لهُ كرسي مخصوص على يسارهِ . وبعد أن يجلس ويحيي مثلاً شقيقهُ أو خالهُ يشير الى ناظر الخاصة أو الحاجب الاكبر بصعود المقابلين الذين من عادتهم أن يحمل كلٌّ منهم سيفًا في الرسميات بخلاف الخنجر الذي لا يفارقهم الا عند النوم . وعند دخولهم يقف لهم ومعهُ الامراء والعمال وكلهم يتقدمون أمامهُ قليلاً ويحيونهُ واحدًا فواحدًا . وكيفية التحية هو أن الواحد يقترب أمامهُ وينحني للامام ويقول (صبحك الله بالخير مولانا) أو (سيدنا) ثم يجلس فيجلسون . وبعد ذلك يتناول الجمع القهوة (ما عدا سموّه) وبعد بضع دقائق ينتصب سموّهُ قليلاً دلالة الانصراف فينتصب الجمع ويحيونهُ واحدًا بعد الآخر كتحيتهم عند دخولهم وينزلون فتصدح



(ناظر السراي)   (السيد منصب بن علي)   (رئيس الموسيقى)   ومعهم صاحب السياحة

الموسيقى بالسلام وعندها يقف السلطان ومن معهُ احتراماً للسلام ثم يخرج ووراءه الامراء والعمال .

ومما يحلو لديَّ ذكرهُ أني لم أتقدم لتحية سموّه الا ويبتسم في كل مرة . ويغلب على ظني أن ذلك لسببين . الاوَّل هو أني الوحيد بين كل العمال والمقابلين الذي يحمل طربوشاً على رأسهِ . والثاني هو أني فريد في تأدية التحية والسلام اذ كنت أُؤدي ذلك بالطريقة المصرية التركية عند مقابلة عظيم لاني لم أرغب في تقليد القوم في ما يقولونهُ لسموّهِ عند التحية

***

ومن لطيف ما أتذكرهُ عن سموّهِ بشأني هو أني كنت ضمن عماله عند حلول عيد الاضحى فقبل العيد بيومين كان ناظر السراي بجانبي نتحادث ثم جرَّنا الحديث الى ذكر العيد . عند ذلك قال لي الناظر: من الصواب انك لا تحضر حفلة العيد مع المقابلين لانهم كلهم مسلمون أما أنت فمسيحي . وانما تأتي هنا قبل ميعاد الحفلة فتقابل مولانا على انفرادٍ وتؤدي رسوم المعايدة . وبعد ذلك تقصد منزلك وتستريح هناك . فما كان مني الا الموافقة على رأيهِ اذ هو على كل حال رأي حقيقي ليس فيهِ اجحاف بي . وبعد العصر توجهت للسراي لمباشرة أعمالي كالعادة فحضر عندي الناظر متبسماً ثم قال اني أبديت الفكر الذي اتفقنا عليه في الصباح لمولانا فلم يرتح منهُ بالمرّة اذ أن سموّهُ قال لي : كيف ان كل العمال والبعيدين عن السراي يكونون محتفلين منشرحين وهذا الغريب يجلس في منزله كالحزين ، ان مثل هذا الانسان لا يليق بنا أن نجرح احساساتهُ في ظروف هو أحوج فيها للتسلية منكم . وعلى ذلك فلا بد من وجودهِ معكم يؤدي أعمالاً مثلكم لانهُ من أولاد السراي فاذهب واخبرهُ بذلك وسلمهُ مبلغ كذا

على قبول هدية العيد ولا فرق عندي في مثل هذه الامور بين المسلم والمسيحي

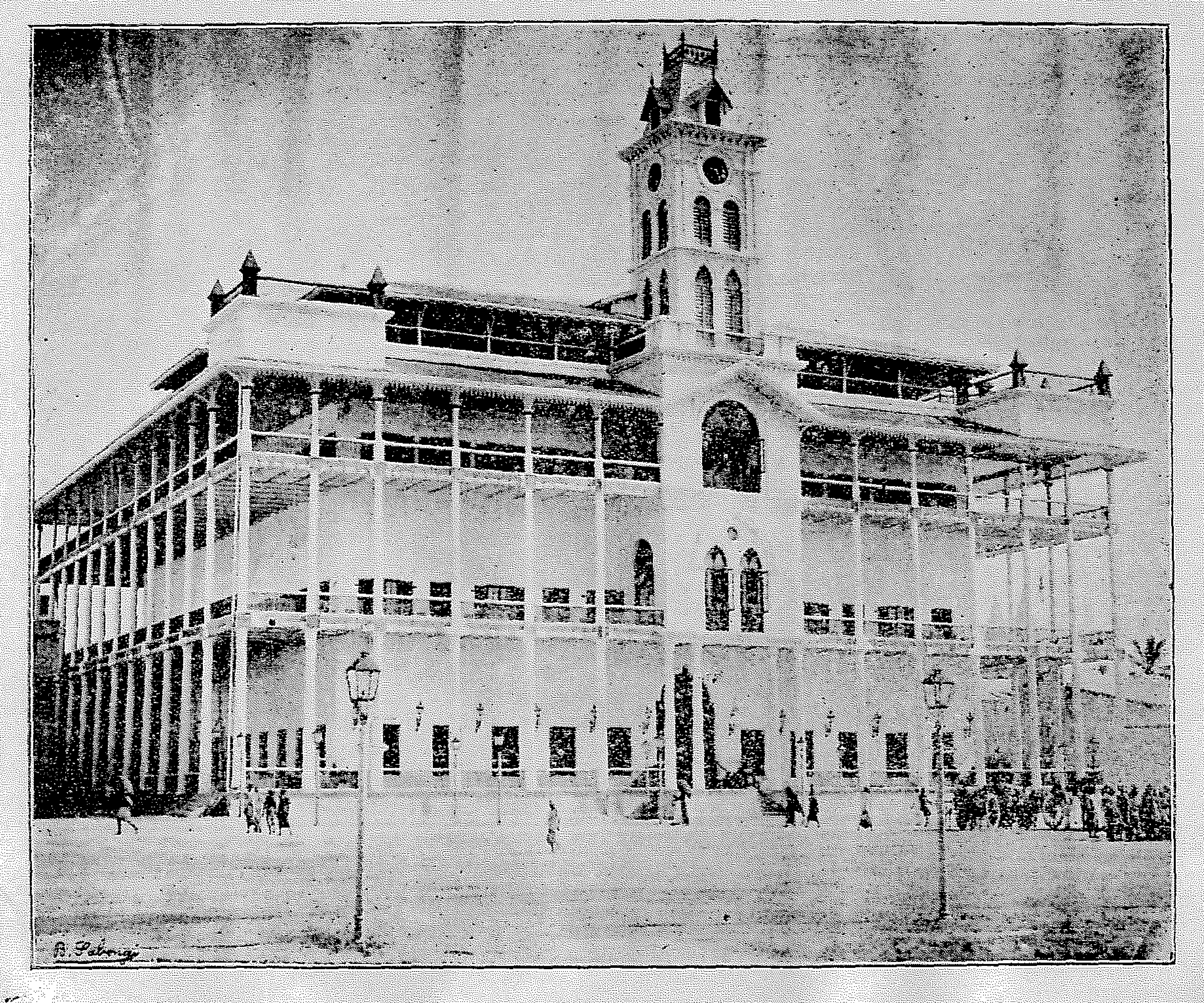
هذه كانت احساسات ذلك الملك الشريفة العالية نحو أحقر خدامهِ وهكذا تكون آداب الملوك

على أنني وأيمُ الله بعد أن أصخت الى كل هذه الاقوال لم أستطع أن أنطق بكلمة شكر أو دعاء اذ أن لساني تلعثم وتتذاك فاكتفيتُ أن أقابلها بدموع فرح وسرور

اني لا أود أن أسترسل في مدح السلطان حمود (حفظهُ الله) خوفًا من أن يتهمني بعض المطلعين على أقوالي هذه بأني أطمح الى مكرمةٍ أو مبرَّة . ويعلم الله اني براءٌ من ذلك وليس هذا من شيمتي فضلاً عن أني أعلم حق العلم أنهُ ربما لا تقع أنظار سموّه على هذه السطور . وانما الاقرار بالجميل من أقدس الواجبات وذكر الحقائق من أوّليات الفروض على كل من يمسك قلمًا ويخط شيئًا ليدوّنهُ في بطون الاوراق . ولو أمعن القارئ النظر جيدًا في كل كتابتي هذه لتأكد صدق قولي هذا وكفاني مؤونة الاعتذار والتنصل اذ أني أمدح عند ما يلزم المدح والعكس بالعكس

* * *

أما القصر السلطاني فهو بناءٌ مربع فاخر بقرب شاطئ البحر وأمامهُ ميدان فسيح مقامةٌ فيهِ سارية للعلَم السلطاني (الذي لونهُ أحمر عادي كلون المصري بدون الهلال) ومنتشرة على جوانبهِ مدافع عديمة النفع من باب حسن هيئة المنظر وهو ذو طبقتين ترتفع كلٌّ منهما على نحو خمسين عامودًا من الحديد المجوّف المطلي بلون الرخام . وعلى المدخل الاوّل الحرس بالاسلحة والى كل جانب منهُ مدفع ضخم . والبناء مربع من الداخل كما هو في الخارج ولهُ درَجان أحدهما



السراي السلطانية وتسمى «بيت العجائب»

لطلوع ونزول سموّه عليهِ وأمراء العائلة ووكلاء وقناصل الدول والثاني للعمال والخدم والحشم وكل الاعراب . ثم ان كل ضلعٍ من البناء عبارة عن قاعة واحدة فيكون بكل دور اربعة محالّ . والدور الاوّل بهِ قاعتا الاستقبال للاعراب والاجانب ثم الديوان الخصوصي فأودة السفرة . والدور الاعلى للنوم والجلوس والخصوصيات . وأبواب كل هذه المحلات منقوش عليها الخطوط البارزة الذهبية اللون تحوي شيئاً من الآيات القرآنية الشريفة وبعضاً من أبيات البردة . وفي كل قاعةٍ أربع أو خمس ثريات كبيرة وكثير من المرآت الكبيرة لا تقل الواحدة منها عن أربعة أمتار ارتفاعاً ومتر ونصف عرضاً والكراسي المذهبة والمناضد العجيبة الشكل والصنع وكلها من المخمل والحرير المزركش والجلد والارضية في الدورين مفْروشة بالسجاجيد العجمية الغالية الثمن وفي منتصف الضلع الذي هو واجهة القصر بناء عامودي مرتفع كقبة الاجراس مركب بأعلاه ساعة دقاقة ذات أربعة أوجه تسمع من كل انحاء المدينة ، ومن القصر يمتد ممرٌّ موصل الى سرايات الحرم المصون والسراري والجواري ومنهُ يدخل ويخرج السلطان عند زيارتهنّ وعلى أبواب هذه السرايات قائم الحرس بالاسلحة آناء الليل وأطراف النهار

والقصر السلطاني وملحقاتهُ المتصلة بهِ تنار بالنور الكهربائي الابيض اللطيف والذي يقف بعد الغروب في ميدان السراي يتخيل لهُ أنهُ في رابعة النهار لزيادة أنوار السراي مع المنارة السابقة الذكر الواقعة امامها

وهذه هي السراي التي كانت صوبت عليها القنابل قبل تولية سموّ السلطان حمود وقد استغرق تصليحها زمناً طويلاً اذ أنهُ لم يتمّ الاَّ في أواخر شهر يناير سنة ١٩٠٠

الفصل العاشر

أقوال عمومية

«نخوة صديق ، أقوال عمومية عن زنجبار ، العود الى الوطن»

اذا كان الاصل في الموضوع هو تسطير حكاية وقعية عن ذات شخصي وما كتابتي عن مشاهد البلاد التي حللتُ بها الاّ عرضية اكتبها ضمنًا لعدم خلوها من الفائدة أو هي تأتي عفوًا في سياق الحديث فيكون من المحتم عليّ أن لا أغفل شيئًا من خصوصياتي حتى على الاقل لا ينغصني ضميري فيما بعد على ذكر أمر بسيط واغفال أمرٍ مهم كالذي أحاول الآن تسطيرهُ واذا صح هذا القول كان من الضروري ذكر العبارة الآتية في مقدمة هذا الفصل لتكون في مكانها من سلسلة رحلتي

كان من دأبي أني أصرّح بمكاتيبي لاهلي وبالاخص لصديق حميم (أعدمنيه الدهر) بكل ما ينتابني من شقاء وينالني من هناء اذ كنتُ أقص لهم الامور بالخيط والابرة وعلى ذلك فقد كانوا على علمٍ بكل الاجراآت التي اتخذتها في زنجبار للالتحاق بعملٍ ما وخيبة مسعاي

فمن بعد أن ألحقتُ بخدمة السلطان بنحو ثمانية أيام ورد تلغراف الى التاجر المصري الحلبي آنف الذكر من عملائهِ بمصر بأن يعطيني ألف فرنك فوإن كنتُ لم أتأكد في ذلك الوقت كل التأكيد ممن هو مرسل هذا المبلغ الا انني لم أتحوّل عن الفكر بأن ذلك الصديق هو المرسل وبعد نحو خمسة عشر يومًا ورد البريد



الى تلك الروح الطاهرة الزكية أُهدي كتابي هذا

ومنهُ تأكدت أنهُ هو هو بعينهِ وبأنهُ مستعد لاعانتي بالدرهم على أي عمل تجاري اكتسب منهُ معيشتي ولكن لما كان سبق استخدامي أعدت ذلك المبلغ ذا هو عن يد أحد شقيقيَّ لعدم لزومه لي بالكلية

ربما يقول البعض وما مناسبة ذكر هذه العبارة مع انها ليست من التفكه بشيء ولا هي ذات فائدة تذكر على انني أراني وكل من يقول ذلك على طرفي نقيض ولعمر الحق أني لم أقصد انتهاز الفرصة في تدوين هذه المبرة على صفحات الطروس جزاءً وشكرًا لصانعها (رحمهُ الله) اذ قد تمَّ ذلك من قبل لاني أودعتها علنًا بطون الاوراق في مكان خصوصي بعد أن أعلنتها على رؤُوس الاشهاد يوم كانت فيهِ الجماهير متجمهرة حدادًا على ذلك الصديق وانما سطرتها هنا لثلاثة أوجه الاول لاني كما قلت توخيت في رحلتي هذه ذكر كل شيء صادفني من طيب وردي وكبير وصغير والثاني لتكون هذهِ العبارة أنموذجًا أدبيًا يتبعهُ الاصدقاء مع أصدقائهم وقت الحاجة والثالث وهو الاهم ان كل من يقف على هذا السرّ المعلن يقول « رحم الله هنري خياط فقد كان برًّا بأصدقائهِ مخلصًا لهم على البعد والقرب »

***

أما عن زنجبار فمن لطيف ما كنتُ أراهُ وقت التفسح أن بين شبان أغنياء الهنود وشبان مصر شبهًا كبيرًا ووجه الشبه هو حبُّ الظهور والفخفخة من مثل تعلقهم بركوب الدراجات التي كثرت في زنجبار وركوب (الدوجكار) أو الفايتون والعربات ذات العجلات بالصمغ المرن (الكاوتشوك) وتفنن الاحداث في مسك السجاير وتدخينها ووضع زهرة على الصدر وغير ذلك كثير ولذا كنت أكاد أتصوَّر أن ذلك الشارع موصل لجهة الكوبري والجزيرة وان كان شتان بين الثرى والثريا والزنوج يخافون خوفًا شديدًا من الكلاب لحداثة عهد وجوده وندارتهِ بينهم

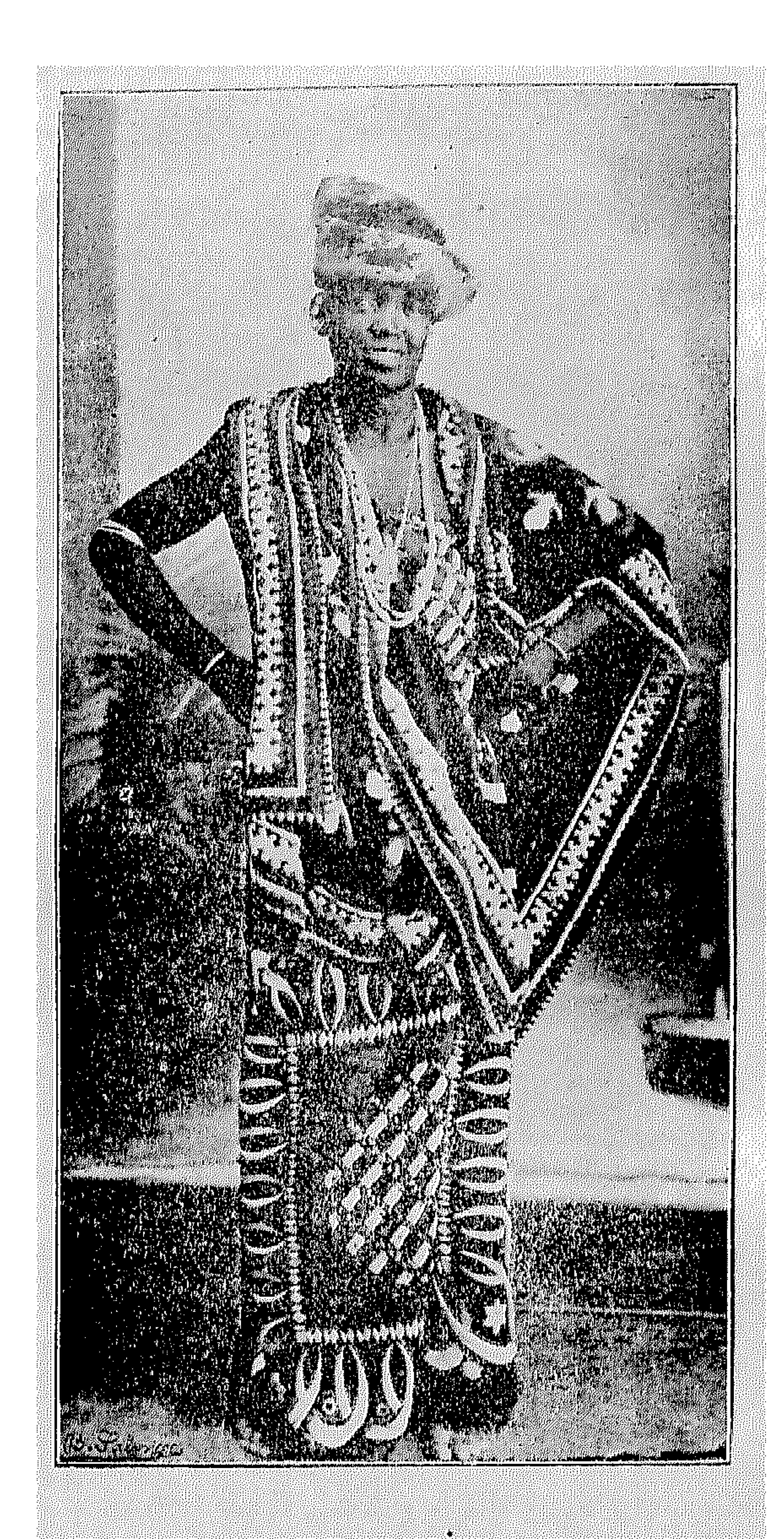
خصوصاً الاناث منهم فهنّ وان كنّ سود البشرة الاّ انهنّ رقيقات ضعيفات القلوب جداً يؤيد ذلك أن الرجل لا يستطيع أن يمد يدهُ على المرأة لان التطاول عليها بالضرب أو السباب يعدّ عيباً لا يأتيهِ الاّ كل ذميم باعتبار أنها أضعف من الرجل : نعم هذا هو دستور الزنوج الهمج — فيا للعجب

ومن عاداتهم أن البنت اذا بلغت أشدها تفرض عليها امرأة (مثل بلاّنة لها) أن لا تكلم أحداً مسافة ثلاثة أو أربعة أيام الاّ اذا أعطاها انسان نقوداً يشترط أن تكون من فضة ، وهي اذا رأت احدى صاحباتها أو معارفها اللاّتي هنّ اكبر منها سناً ركعت امامها دون أن تكلمها وسبب ذلك ان الصغيرات يحترمنَ الكبيرات فاذا بلغت الصغيرة يقال عنها أنها صارت في مصاف النّساء ولذا فهي تؤدي الاحترام الاخير لمن كنّ اكبرمنها وفي ذلك الوقت تلقبُ البنت بلفظة (ماري) أي راشدة

والاعراب والزنوج والهنود الاسلام لا يأكلون في الطريق مهما كان الامر وهم يعتبرون ذلك عيباً عظيماً ومن أتاهُ كأنهُ أتى شيئاً فرياً ولا مرية في ذلك فان الدين الحنيفي يستحسنهُ كما انهم لا يأكلون الاّ باليد اليمنى دون معاونة اليسرى التي لا يجوز أن تمس شيئاً مطلقاً من المأكول بحجة أنها تؤدي وظيفةً أخرى — وشتان بين وظيفتي اليدين

وأعراب زنجبار الذين أصلهم من بلاد عمان متمذهبون بمذهب الاباظية وهم ليسوا على وفاق مع تابعي المذاهب الاخرى وهو أمر غريب في الدين الاسلامي المشهور باتحاد مذاهبهِ باعتبار أنها عبارات عرضية لا تؤثر في الجوهر وعادة الاباظيين عند ما يسيرون في جنازة يكتفون بأن يقول واحد منهم بصوتٍ عالٍ هكذا : صلّ على الرسول ، صل على النبي ، يا حي يا دايم ، دون ذكر أقوال أخرى

ولقد كان أحد الاباظيين الذين من زنجبار أتى مصر وطبع بها كتاباً لا يفهم



الزنجية الحسناء

لهُ مبنى ولا يعرف منهُ معنى وخلاصتهُ الكلام ضد المذاهب الاخرى ثم أخذ منهُ نسخاً وعاد الى زنجبار زعماً منهُ أنهُ يرضي فريق الاعراب الاكبر هناك بل يستجلب رضاء السلطان نحوهُ (لان سموّه أباظيّ المذهب) فعند ما بلغ الخبر مسامع سموّه أمر باحضار ذلك الرجل وكتابهِ وبعد أن اطلع على بعض منهُ أمر بزجهِ في السجن وقد كنا في تلك الساعة في عملنا في الديوان فحضر الينا ناظر السراي قائلاً «ان كل من يتشفع في فلان الفلاني لا بدَّ من أن يكون نصيبهُ معهُ وهذا حسب نطق مولانا» نعم ان السلطان محق في عملهِ لانهُ يخشى أن يتسبب عن هراء ذلك الصعلوك أمور خطيرة تكون مغبتها الاجهاز على تلك الفضلة الباقية من تلك المملكة خصوصاً وان الامر ديني فتكون قد جنت على نفسها براقش

وللزنجباريات (وهذه اللفظة تشمل الاعرابيات واللاتي من بلدة لامو على ساحل أفريقيا الشرقي وتابعة لزنجبار . واللائي من جزائر انجازيجا الواقعة غرب زنجبار وتابعة لفرنسا) موسم كبير يتعلمنَ فيهِ فنون الرقص وضروب الخلاعة بحجة أن المرأة تتعلم ما تستجلب بهِ رضاء رجلها وافتتانهِ برشيق حركاتها . ولهنَّ محل خارج المدينة في وسط المزارع يرحنَ ويغدون اليهِ صباحاً ومساءً مدة الموسم ، وهناك المعلمات من العجائز الداهيات وهنَّ يعجبنَ كثيراً بمن تتقن ذلك الفنّ الواسع . ومن ضمن ما يتعلمنهُ المشية ، مشية التبختر المقاربة للرقص وكلام المؤانسة وعبارات تبادل الهوى والغرام والنكات الرقيقة المضحكة

ومجمل ما يقال عن حالة زنجبار الادبية أن العفة والصيانة وكل هذه المرادفات تكاد أن تكون غير معلومة هناك ولا يعلمها الا النزر اليسير من بعض جاليات الامم الاخرى . وفي هذا القول كل المعنى الذي أُريدهُ والسلام

⁂

ولقد فاتني أن أذكر شيئاً عن العسكرية وقوّتها في المكان الذي كان يلزم ذكرها فيهِ . ومع كلٍّ فلا مانع من ايراد الكلام عليها الآن حتى يقف القرَّاء على قوَّة تلك المملكة أو الدولة أو ربما السلطنة المستقلة

فالعسكرية هناك لا يزيد عددها عن نحو خمسمائة نفر تقريباً ما بين عساكر وصف ضباط وضباط يرأسها اللواء (جنرال بريجاديه) ريكس الانجليزي والباقون كلهم من الزنجباريين . وبينهم أميرالاي يسمى محمد بن سعيد وقائمقام لم يحضرني اسمهُ . والعساكر ليس لهم عمل حربي البتة سوى المحافظة على الامن العامّ أو مسيرهم في الاحتفالات الكبيرة الرسمية . وأحياناً يستعرضون في ميدان السراي على قبول تفرج السلطان والاهالي أيضاً . وملابس العساكر من الكاكي الهندي وعلى رؤوسهم طاقية أفرنجية أما الطربوش فللاحتفالات الرسمية . وهم حفاة الاقدام لانهم لا يطيقون لبس الاحذية . وملابس الضباط التيل الابيض والاحذية البيضاء اللون والطاقية الهندي المزركشة بالقصب ولا يقلّ ثمن الواحدة منها عن جنيه . ومعدل مرتباتهم الشهرية بوجهِ التقريب هو : ستون قرشاً للعسكري النفر . وجنيه للصف ضابط . وجنيهان للملازم . وأربعة لليوزباشي . وستة للبكباشي (الميجر) . وعشرة واثنى عشر للضابطين العظيمين وهما القائمقام والميرالاي الآنفي الذكر

والعسكرية ليست اجبارية بل هي اختيارية لكل من يريد الانخراط فيها عند الطلب . وأغلب الضباط أُميون لا يدرون الكتابة والقراءة الا القليل منهم من يدري شيئاً من العربية البسيطة ولكنهم والحق يقال نبهاء للغاية سريعو التقليد يؤيد ذلك القول أن الاميرالاي (الكولونل) محمد بن سعيد لما كان صبياً كان يقف بين المتفرجين ويرى تعليم العساكر الذي كان ابتدأ في أوائل عهد

المغفور لهُ السلطان برغش (وهذا السلطان كان زار البلاد الأورباوية وعرج على القطر المصري بدعوةٍ من الخديوِ الاسبق المغفور لهُ اسماعيل باشا) وبعد انتهاء التعليم والتفرج كان يجمع صبية الازقة والشوارع ويعلمهم مقلدًا كل ما كان رآهُ أو سمعهُ . وبينما كان ذات يوم مستعرضًا فرقتهُ شاهدهُ السلطان برغش فانسرَّ منهُ جدًّا وبعد أن أحضرهُ أمامهُ أدخلهُ في العسكرية ، وبعد أيام قليلة ارتقى الى ملازم وهكذا حتى صار الى هذه الدرجة . وقد رأيتهُ يستعرض العساكر بدل الجنرال الانجليزي وفي حضرتهِ . ورأوهُ اجانب كثيرون من المارّين بالمراكب فاذا هو عارف تمام المعرفة بالاصول وقواعد الحركات العسكرية وهذا حسب القول الذي سمعتهُ مرارًا من الاجانب

وليس ذلك فقط بل ان السلطان برغش لما حضر الى مصر كما ذكرت وسمع الموسيقى وألحانها المشجية طلب أن يكون لهُ فرقة موسيقى . فأرسلوا لهُ عددًا من أرباب هذا الفنّ وغيرهم من أرباب الآلات ذوات الأوتار . فلبثوا مدةً يُنقدون الجعالات الكبيرة . وقد كان أولاد الازقة يقلدون بأفواههم وأصواتهم كل ما سمعوهُ من الالحان والنغمات

ولما بلغ ذلك مسامع السلطان الحاكم في ذلك الوقت وهو السلطان علي صرف المصريين واعتاض عنهم بزنوج واكتفى برئيس مصري يعلمهم . أما الآن فاستُغني عن ذلك الرئيس برئيس آخر زنجباري وقد سبق ورود اسمهِ . وهم الآن يؤدون أعمالهم على ما يروم السلطان

⁂

ومن العار الشنيع أن أولئك الاقوام من أعراب وزنوج وغيرهم لا يعرفون أسماء مسميات بسيطة الا بالانجليزية مثل قولهم (الميل) عن الباخرة و(باراكس)

عن ثكنة العسكر و (جادن) عن الحديقة و (أوفيسا) عن الضابط و (مانوار) عن المركب الحربي و (استامب) عن طابع البوسطة و (الاوفيس) عن المكتب أو الديوان و (إِتشيف) عن الرئيس و (الهوتيل) عن الفندق و (بوك) عن الدفتر أو الكتاب و (تايم) عن الوقت و (شامبا) عن المزرعة و (بنسل) عن القلم الرصاص و (الميشن) عن المرسلين و (شاتي) عن القميص و (كالا) عن الياقة أو رباط الرقبة و (سوكس) عن الجورابات و (الاستيم) عن البخار و (الجينير) عن المهندس و (رجستر) عن سوكرة الجواب أو التوصية عليهِ و (چودج) عن القاضي و (الكات) عن المحكمة و (الكوتي) عن السترة و (البل) عن كشف الحساب أو الفاتورة و (الريل) عن السكة الحديد و (جايد) عن الدليل و (الاستيشن) عن المحطة ، و ألفاظ أخرى كثيرة وكلها لا تفهم لديهم الاَّ باللفظ الانجليزي المحرف

اتفق مرةً أن باشكاتب الديوان السلطاني كتب مكتوبًا لاحد أصحاب الجرائد الصغيرة بمصر وكان ذلك ثاني يوم استخدامي ثم ناولنيهِ لتلاوتهِ واذ فيهِ هكذا : ومبعوث لجنابكم الاستامب المطلوب : فسألتهُ وما هو الاستامب فأجابني : هو هاذاك الذي يوضع على البخشة فسألتهُ ثانيًا : وما معنى البخشة فأجاب هو هاذاك الذي يوضع داخلهُ البروه فلم أفهم هذه أيضًا فضجر من تكرار سؤالاتي ثم بحث في طاولتهِ وأخرج منها جوابًا واردًا وأشار على الطابع بأنهُ هو الاستامب والبخشة هي الظرف والبروه هي ذات الجواب وبعد أن ضحكت كثيرًا قلت لهُ بما أن هذا المكتوب لمصري أو هو سوري فالاصوب تغيير لفظة استامب بلفظة طوابع فلم يقبل قائلاً : كل انسان يكتب ما يعرف وأنتم يا مصريون أمكن منا نحن الاعراب في العربية . على أن الحقيقة التي رأيتها ان اللغة العربية براءٌ من

هؤلاء الاقوام فيا خيبتاهُ على الاعراب ويا ضيعتاهُ على العربية ويا نكبتاهُ على ما آل اليهِ أمر الناطقين بالضاد .

معلوم أن جلالة السلطان عبد الحميد خان أمير المؤمنين هو خليفة الاسلام قاطبة الذين على وجه البسيطة وقد عرفنا أن زنجبار هي مملكة أو بلاد عربية اسلامية فهل لها علاقة بذلك الخليفة ؟ حاشا من ذلك ، نعم انهم محافظون للآن على الخطبة في الجوامع باسمهِ ولكنهم لا يعلمون عن جلالتهِ شيئاً غير ذلك لا سياسياً ولا دينياً وقد أرى أنهُ كان من الواجب أن تكون لخليفة الاسلام علاقة دينية مع تلك البلاد ولا تكلف جلالتهُ اكثر من ارسال بعض القضاة الشرعيين لمباشرة الامور الشرعية وبث التعاليم الدينية شرطاً انهم يكونون من المصريين وليس من الاتراك للين عريكة أولئك ولسهولة معيشتهم في طقس تلك البلاد عن الاتراك . بل لماذا لا يكون بزنجبار معتمد عثماني ، فكثيراً ما يمرّ على تلك الميناء بل ويوجد أيضاً بها كثيرون من الرعايا العثمانيين ، حتى يكون مرجع أمورهم اليهِ أسوةً بالدول الاخرى ولكن الى من يوجه القول والكل قد وضعوا أصابعهم في آذانهم .

***

في أواخر أيام وجودي بزنجبار كانت ثارت فتنة بلاد عاشنتي المشهورة ولما تعاظمت الثورة واندلع لهيبها في أماكن كثيرة وحاصر الاهالي مدينة قوماسيا وفيها الحاكم الانجليزي رأت بريطانيا ضرورة ارسال قوّة كبيرة لاخماد نيرانها ولكن من أين لها أن تأتي بتلك القوّة وباب الحرب الترنسفالية لا يزال مفتوحاً وكلما قدمت لهُ الآلاف قال هل من مزيد ، على انها لم تكن مرتبكة بهذه الحرب فقط بل كانت قامت قيامة البوكسرس أبناء مملكة ابن السماء ومن ثم اتحدت الدول العظمى على ارسال تجريدة متحالفة الى تلك البلاد ولم يكن لبريطانيا الا أن تسدّ هذا

الطلب من الجيوش التي في جنوب أفريقيا رغماً عن شدة احتياجها اليهم ، فلما قامت ثورة العاشنتي المذكورة نظرت يميناً وشمالاً وأخيراً لم تجد أمامها سوى زنجبار الضئيلة فأرسلت احد مراكبها الضخمة المسمى « ترويبر » فرسا بومباسا أوّلاً وبعد أن جمعوا منها ما جمعوا عرج على جزيرة زنجبار ورسا في ميناها وكانوا يشيعون للزنوج انهم يريدون ارسالهم الى احدى الجهات القريبة وبعد ستة شهور يعودون ، وقد خصصوا أجرة النفر الشهرية جنيهاً خلاف لوازمهِ الاخرى فكل من كان يرغب أو يرغب سيدهُ تأجيرهُ كان ينقد ماهية ثلاثة شهور مقدماً ثم ينقلونهم أفواجاً الى سطح المركب ، وقبل جمع كل العدد اللازم عرف الزنوج أن اخوانهم سائرون لمحاربةٍ وقتالٍ على مسافاتٍ بعيدة جداً من بلادهم فأحجموا عن التقدم اليها ولما رأى الانجليز ذلك عمدوا الى انتقاء اللائقين من المسجونين ونقلهم الى السفينة ومع ذلك فلم يتم العدد المطلوب ، عند ذلك أمروا رجال البوليس بالقبض على كل زنجي يرونهُ ماراً في الطرق والشوارع بعد الساعة الرابعة العربية ليلاً وبما أن أهالي زنجبار لا ينامون قبل منتصف الليل فقد جمعوا بهذه الطريقة العدد الباقي في ظرف أربعة ليال ولما علم قناصل الدول بما كان من طرق التجنيد هذه فاوضوا جناب قنصل جنرال بريطانيا عنها وقد بلغني أنهم كادوا يقيمون الحجة على هذه الاعمال الا أن سموّ السلطان تداخل في الامر وعلى ذلك أقلع « ترويبر » والصراخ يتبادل بين من في المركب ومن على الشاطئ — فللهِ الامر من قبل ومن بعد.

* * *

أما من جهتي الخصوصية فاني بعد مضي ستة شهور في خدمة السلطان أخذت تستهويني الافكار وتعبث بي عبث الرياح بريشة فكنت أناجي نفسي قائلاً: وما هذه العيشة المنفردة حيث لا أنيس لي يؤنسني أو هل اكتفي بخدمتي هذه

ظافرًا منها بالكفاف اذ أن مبلغ العشرة جنيهات جعالتي الشهرية لم يكن يتبقى منهُ شيء ولا أمل لي في زيادة جعالتي يوماً ما لان ذلك المبلغ (الطائل) يصرف لي بنوعٍ استثنائي وهو اكثر مما لزملائي الذين هم أقدم مني عهدًا كما أوضحت ذلك قبلاً، فضلاً عن اني رأيت أن صحتي آخذة في الضعف كما واني رأيت أن قوّة بصري انحطت عن قبل حتى اضطررت بعد استشارة الطبيب مرارًا الى استعمال العوينات وبخلاف ذلك فان المكاتيب كانت تردلي تباعًا من أهلي وخصوصاً من ذلك الصديق المخلص وكلها لا تتضمن سوى الالحاح عليّ بالرجوع العاجل فصرتُ حينذاك بين عواملٍ قوية تتنازعني البقاء أو الرحيل لبلادٍ أخرى أو العود الى الوطن حتى في أواخر يوليه سنة ١٩٠٠ ترجح عندي عدم البقاء بزنجبار ومالت نفسي الى السفر للهند وكأني أصبتُ بمسٍ من شأنهِ الميل الى مشاهدة كل البلاد القاصية — ولا لوم عليّ في ذلك فالجنون فنون — فأخذت أستعلم عن كل ما يلزم الاستعلام عنهُ ونويتُ الرحيل دون أن يؤثر عليّ وجود الطاعون أو تسلطن القحط في تلك الانحاء وقد كتبتُ لاهلي وأصدقائي وعرّفتُ اخواني بزنجبار عن ذلك

وفي يوم الاربعاء أوّل أغسطس أخليتُ طرفي من خدمة السلطان بعد أن مهدت السبيل من قبل ببضع أيام . ولبثتُ أنتظر الباخرة ثم أمر السلطان في يوم الاحد ٥ منهُ بمثولي بين يديهِ . وعند العصر تشرفت بدخولي في غرفة مكتبتهِ الخصوصية . وبعد أن أذن لي بالجلوس قريباً من أنظارهِ سألني : متى يكون السفر ؟ فأجبتهُ ربما بعد يومين أو ثلاثة يا مولاي . ثم قال بما أننا عزمنا للركوب الى (شيكواني) المتنزه والبقاء هناك بعض أيام استصوبنا أن نراك قبل السفر . وأردف كلامهُ قائلاً : والى أين العزم ؟ فأجبتُ ربما كان لبلاد الهند اذا أراد المولى . فتبسم وقال : أليس من الصواب أن يكون لوطنك ، حتى اذا أردت

العود الى زنجبار كان لك ذلك على الرحب والسعة ؟ فأجبتهُ : أمر مولاي مطاع الا أنني لا أرى ما يضطرني الى ذلك . وفي الحال أمر خادمهُ فأحضر رسماً لسموّهِ بملابسهِ الرسمية وكتب عليهِ هكذا « صحيح حمود بن محمد بن سعيد » ثم قال اني أُعطيك هذا الرسم مكتوباً عليهِ بقلمي وهو أعظم برهان على رضائي عليك ، فتناولتهُ بأيدي الشكر والخضوع مقبلاً يدهُ الكريمة مرَّات . وأخيراً منحني شيئاً من نعمهِ وانصرفتُ شاكراً متأبطاً ذلك الرسم الرفيع القدر

فلبثتُ أنتظر ورود الباخرة التي تأخرت عن ميعادها حتى في صباح يوم ١٣ أغسطس كانت الباخرتان القاصدتان بومباي وأوربا راسيتين في الميناء .

عند ذلك ترددت في السفر لايّ جهةٍ . ثم قصدت مكتب شركة البواخر وهناك انتظرت بضع دقائق ريثما ينتهي العامل من العمل الذي كان بيدهِ ثم قلت لهُ أن يعطيني تذكرة درجة ثالثة للسويس . وبعد أن ناولتهُ ثمنها وهو عشرة جنيهات وأخذتها صرت أُفكر في هذا الهوس الذي اعتراني حتى لما وصلت الفندق وعلم صاحبهُ بما عزمت عليهِ لم يكن اندهاشهُ أقل من اندهاشي ثم أعلمتُ باقي الاخوان والمعارف بذلك.

وعند الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم نزلتُ بالباخرة الالمانية « كونج » وهذه كانت المرَّة الرابعة لركوبي البحر . وعند منتصف الليل أقلعنا من زنجبار . وفي الضحى رسينا على بلدةٍ تسمى « تانجه » على ساحل أفريقيا الشرقي من ضمن المستعمرة الالمانية وهي ليست مشهورة بشيءٍ سوى أن الالمانيين يمدون منها خطاً حديدياً سيكون منتهاهُ عند بحيرة تانجانيقا ولضيق الوقت لم نتمكن من النزول بها اذ أننا أقلعنا منها حوالي الظهر

والباخرة كبيرة من أحسن بواخر الشركة الالمانية التي تمخر في المحيط الهندي .

ولذا فقد كنا على غاية من الراحة · وقد كانت تسير بسرعة عشرة أميال بحرية في الساعة مع أن بواخر المساجيري ماريتيم الفرنساوية تسير اكثر من ذلك · وكنا نعرف سرعة المسير من شيئين إما الكشف الذي يعلقهُ القبطان وقت الظهر يومياً وهو مبين بهِ المسافة التي قطعتها الباخرة في مسافة أربع وعشرين ساعة · وإما من التاشومتر · وهذا عبارة عن آلة أشبه بالساعة مركبة في مؤخر الباخرة ومتصل بها حبل ربما لا يقلُّ طولهُ عن مائتين وخمسين مترًا مربوط بطرفهِ الثاني قطعة رصاص وبقربها عصاً قصيرة موضوعة في الحبل بشكل هندسي ، والحبل مدلى في البحر · فعند ما تسير الباخرة يكون الحبل مجرورًا وراءها ويدور طرفه المدلى في الماءِ فيدير الحبل كله ثم هذا يدير محور الآلة وبذا يدور العقرب على أعداد الاميال وكلما ازدادت سرعة مسير الباخرة أسرع دوران الحبل وهلمَّ

وفي يوم ٢٠ أغسطس وصلنا الى عدن فنزلنا بها وشاهدناها مرَّة ثانية وأغلب ما كتبتهُ عنها في ما سبق هو من مشاهدتي اياها هذه المرة وقد أقلعنا منها في نفس اليوم

وعند الساعة الثانية صباحاً من يوم ٢٦ منهُ وصلنا مينا السويس ثم بعثت تلغرافين لاهلي وصديقي (المأسوف عليه) وفي اليوم التالي ركبتُ القطار الى القاهرة

* * *

من ذا الذي كان يعلم أن قدميَّ تطآن أديم تلك الاراضي السحيقة وعينيَّ تنظران ما نظرتاهُ — نعم اني كنتُ أجد في نفسي شعورًا أيام حداثتي عند ما كنتُ أدرس الجغرافية عن مدغشكر وبلاد كفروريا حتى اني كنتُ أتخيل أني واقف بتلك البلاد — والله شهيد عليَّ في ما أقول

الفصل الحادي عشر

السفر الى بر الزنج ثانية والعود الى الوطن

لم يمضِ عليّ بمصر ثلاثة اشهر من بعد عودتي من سفري الطويل الاّ وداهمني مصابٌ كان كطودٍ دُكَّ على ناصيتي حتى سئمتُ الحياة ومللتُ الوجود في الوطن فقد نكبتُ بفقد صديقي المخلص بل خلي الوفي الذي كان سبباً عظيماً في عودتي فلطالما ألحّ عليّ في مكاتيبهِ العديدة بتعجيل العود خصوصاً لحضور حفلة زفافهِ ولكن أبى الدهر الخؤون الاّ أن أحضر تشييع جنازتهِ وأصبَّ عليهِ الدمع الحار بدل حسو العقار — فواحسرتاه

ولما علم بعزمي على مفارقة الوطن صديقي العزيز الاسيف زكي افندي باسيلي سكرتير هندسة السكة الحديد المصرية بسوهاج رأى أن يرافقني الى حيث تلقي بنا المقادير وذلك تخفيفاً لثقل أحزانهِ وهرباً من فرط أشجانه

على اننا بعد ترداد الفكر رأينا أن لا حظَّ لنا في السفر الى أوربا ولا سرور لنا في ملاهيها فآثرنا المناظر الطبيعية الهمجية عن محاسن مشاهد البلاد الاورباوية وقد استقرّ أخيراً رأينا على السفر الى زنجبار لكوني خبيراً بها مطلعاً على شجرها وبجرها ملماً بلغة قاطنيها

ولما كنا تأهبنا لركوب البحر يوم ١٦ ينايرسنة ٩٠١ باحدى بواخر شركة المساجيري ماريتيم الفرنساوية وأخذنا تذكرتين بالدرجة الثالثة ثمن كل تذكرة ثلثمائة وثلاثين فرنكاً ركبنا القطار من القاهرة ظهر يوم الاثنين ١٤ منهُ الى السويس ولبثنا هناك في انتظار وصول الباخرة من أوربا حتى عند الساعة العاشرة من مساء

يوم ١٦ منهُ علمنا أنها على وشك الوصول ولقد كان البرد قارساً في تلك الليلة الحالكة الجلباب ومع الاسف لم يكن لنا مأوًى سوى حوش مكتب تلك الشركة العظيمة الايراد الضانة على ركابها بما لا يكلفها شيئاً يذكر، وقبل منتصف الليل انتقلنا الى الزورق فجلسنا القرفصاء نقاسي ذلك الزمهرير المؤلم ولما تحرّك بنا هاج فيَّ شجن كان كامناً في صدري خصوصاً كلما نظرت الى زميلي وتصوَّرت تلك الاسباب التي أرغمتهُ على فراق صغاره فلذة كبدهِ وحشاشتهِ فتدفقت عبراتي وتصاعدت زفراتي وذلك الزميل يئنُّ أنيناً و يتوجع توجعاً لتذكارهِ ماضيه

و بعد نحو ساعتين ألقى الزورق مرساهُ في وسط القنال بعيداً عن الباخرة التي لم تكن تتقدم الى حيث يجب أن تلقي مراسيها وعند الساعة السادسة صباحاً ألقت المراسي واقتربنا منها فبعد أن صعدنا اليها عرفنا أن رفاصها الذي هو أهم الآلات أصابهُ تلف يوجب تأخير سفرها عن ميعادها ولما كان أعيانا السهر والبرد طول ليلتنا رأينا أننا في احتياج كبير للرّاحة فنزلنا البرّ وقضينا سحابة اليوم في أحد فنادق الحوض وفي المساء عدنا للباخرة ونمنا بها وهي راسية وفي الصباح بلغنا أن التلف الذي أصابها يحتاج تصليحهُ الى وقت طويل وفي اليوم الثالث اضطروا الى ادخال الباخرة في الحوض لكشف المياه عنها وتصليح الرفاص أو استبدالهِ وهكذا صاروا يمدّون مدة التأخير من يومٍ الى آخر ونحن نقضي زهاء اليوم بين مدينة السويس ومنتزه الحوض والليل بالباخرة

وعند الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٢٥ منهُ أو من بعد ميعاد السفر بتسعة أيام أقلعت بنا الباخرة «جمنا» من السويس وفي الغروب اختفت عن أبصارنا شواطئ بلادنا فبعد أن تناولنا طعام العشاء تمشينا على السطح و بعد ذلك نمنا وفي صباح اليوم الثاني تناولنا القهوة واللبن وصعدنا على السطح كعادة جميع الركاب و بعد قليل أسرع

زميلي عائدًا الى فراشه فنزلت اليهِ وابتدأت أن أشجعهُ ولكن قبل أن أتم تشجيعي لهُ تمددت بمحلي أنا أيضًا فأخذنا نتسلى تارةً بالقراءة وأخرى بالنوم أو التناوم وعند الظهر تشجعنا وقمنا لتناول طعام الغداء ولكنني ما كدت ألتقم اللقمة الاولى الأ وتركتُ المائدة وأسرعتُ نحو الفراش وكأن زميلي أصابتهُ مني عدوى كما أصبتُ منهُ في الصباح فتبعني في الحال الى الفراش ولبثنا نهارنا وليلتنا بدون غذاء

وفي ضحى اليوم التالي أتى شابٌّ حبشي كان قادمًا من أوربا ومسافرًا معنا الى جيبوتي وأخذ يشجعنا على القيام من الفراش فعملنا بنصيحتهِ وتأكدنا بعد ذلك أن دوار البحر ناتج من الفكر فيهِ ولذا لا يلزم الانسان أن يستسلم لهُ بل يتغلب عليهِ ويمضي وقتهُ في تلاوة الرّوايات أو الكتب المسلية أو لعب الالعاب مثل الورق والدامة والطاولة ان تيسرت هذه وما أشبه وهذا ما ذكرتهُ آنفًا وقد أعدت التنويه عنهُ للفائدة . أما مائدتنا فكانت مؤلفة من فرنساويين وفرنساويات وثلاثة تليانيين والشاب الحبشي آنف الذكر وكلينا المصريين ، ولكل منا على المائدة محل معين لا يتغير ، وقد كان يلوح على وجوه رفاقنا عدم الارتياح منا وقد علمنا بعد أن السبب في ذلك هو لبس الطربوش لان أغلب الاورباويين على ما اختبرت لا يميلون للعثمانيين لعلة ما تتقوّلهُ وتتناقلهُ عنهم الجرائد عن طباعهم وأفعالهم وسياسة سلطانهم (الخرقاء كما يدعون) ولكننا لما رأينا أن اشمئزازهم يطول علينا شرحهُ لطول مدة رفقتنا أخذنا نستميلهم شيئًا فشيئًا حتى ان أغلبهم صاروا يتقرَّبون منا قبل تقرّبنا منهم ولقد كان يعجبنا كثيرًا مزاحهم وغناهم وخصوصًا اتحادهم في كل شيء فمثلاً اذا قال أحدهم : ان الشوربة ليست مصنوعة جيدًا فالكل يقومون معهُ لشكوى كبير خدام المائدة وهكذا من صغائر الامور — فأين لنا من ذلك في الامور العظيمة

ونحو الساعة الثانية صباحًا من يوم ٣٠ يناير دخلنا مينا جيبوتي وفي الشروق نزلنا البرّ وبعد أن تناولنا قهوة وتمشينا عدنا للباخرة التي أبحرت من هناك في الساعة العاشرة صباحًا من ذات اليوم . ومن ثمّ أخذنا نسير في خليج عدن فالمحيط الهندي الذي كان اكثر سكونًا وهدوًّا من البحر الاحمر

وبعد ظهيرة يوم ٥ فبراير ظهرت لنا أطراف جزيرة زنجبار المعجبة بثوبها الاخضر النضير وسط المحيط الهندي حتى عند الغروب ألقت الباخرة مرساها في المينا . وبعد نحو ساعةٍ نزلنا البرّ ومعنا أمتعتنا وقصدنا فندقًا وبعد أن غيرنا ملابسنا رأيت أن زميلي لا يهدأ لهُ بال الا اذا تمشى قليلاً في المدينة . ومن ثمّ خرجنا للتمشي ولكن ما ابتعدنا عن الفندق قليلاً الا وأمطرتنا السماء مدرارًا فقفلنا راجعين ونمنا

ومضينا اليوم التالي في التجوال في أنحاء البلدة لتفرج زميلي عليها ولما كان علم الاصدقاء والمعارف بوصولي أتوا لزيارتنا . وفي اليوم الثالث تناولنا مسهلاً وقايةً من شرّ تغيير الطقس والغذاء والماء

وبعد أن أقمنا بالفندق خمسة أيام استأجرنا منزلاً بأجرة شهرية تبلغ أربعة جنيهات الا ثلثًا ومن ثمّ انتقلنا اليهِ وأحضرنا بعض أدوات ولوازم ورتبنا حالتنا

ولما كان سموّ السلطان بالمنتزه وقد عاد في يوم ١٢ منهُ توجهت لزيارة ناظر الخاصة وقد علمت منهُ أن سموّهُ علم بوصولي ثاني يوم وصول الباخرة . وفي يوم ١٣ منهُ زارنا الناظر المشار اليهِ وحدد لي ميعادًا لمقابلة صاحب السموّ يوم ١٤ منهُ

فلما آن الوقت المعين أسرعت الي السراي وبعد أن تقابلت بالناظر تشرفت بالمثول بين يدي سموّ السلطان وقد ازددت شرفًا بابتسام سموّهِ عند مقابلتي . ثم تنازل بالسؤال عن حالتي وصحتي وبعد خمس دقائق انصرفت شاكرًا

وبعد يومين قدمتُ الى ناظر الخاصة شيئاً لتقديمهِ هديةً الى أنجال صاحب السمو الكرام فبعد قليل ورد لي من الناظر الجواب الآتي أذكرهُ بحروفهِ على علاتهِ

المود الصادق عزيزي توفيق ميخائيل دام اقباله

بما أرسلتهُ اليّ قد بلغت جلالة حضرة الملوكية وجعلهُ محل القبول وأمرني أن أبلغك جزيل السلام والسلام

الاقل

ليلة ٢٥ شوال سنة ١٣١٨ علي بن محمد

ولقد يستغرب المطلع على خطأ وركاكة كتابة ناظر الخاصة كبير عمال السراي والحال أن هذا الموظف أنبه الجميع وهو يكتب العربية ويقرأها اكثر من سواهُ بعد الباشكاتب فضلاً عن انهُ يتكلم الانكليزية والهندية وقد كان معاوناً بالمراكب التجارية ونال الشهادات التي تثبت كفاءتهُ في ادارة وحساب مسير السفن ثم حاز بحسن درايتهِ ومهارتهِ في أشغال السراي نيشانين في مدةٍ وجيزة

وعلى ذكر النياشين أذكر أن لحكومة زنجبار أربعة نياشين: الاول «الكوكب الدري صنف ثاني» والثاني «الكوكب الدري صنف أول» وكلاهما بشكل نجمة ومن معدن ملوّن والثالث «الحمودي صنف ثاني» والرابع «الحمودي صنف أول» وهما من ذهب خالص والاخير لم يحزهُ الا بعض من اكابر الموظفين

ومما ينعم به السلطان بخلاف النياشين سيوف متنوّعة مختلفة الثمن فمنها ما هو ذو مقبض من معدن ومنها ما هو من فضة أو ذهب ثم الخلع الثمينة والعباآت المزركشة بالقصب وهذه ينعم بها غالباً في الاعياد على أغلب عمال وخدام السراي

ولنعد الآن الى ذكر حالتنا فقد كنا منشرحي الصدور نظراً لترحاب القوم بنا وميلهم الى مرافقتنا وتسليتنا فضلاً عن توفر شروط الراحة لدينا وكمال صحتنا وقد كان جارنا (الذي هو صاحب المنزل الذي استأجرناهُ وهو رجل هندي كبير)



(ناظر السراي)   (خادم السلطان الخصوصي)

يدعونا بعد العصيرة يومياً للركوب معهُ في عرباتهِ الخصوصية والتريض في مزارعهِ الجميلة ، وقد كان يقدم لنا اصناف فواكه كثيرة من مانجو وجوافة وموز ، ولكننا كنا نترك كل ذلك ونميل الى جوز الهند غير الناضج لشرب مائهِ . ولقد أفرطنا فيهِ لبرودتهِ وحلاوة مذاقهِ خصوصاً ما كان منهُ مقطوعاً من شجرهِ في الحال حتى اننا كدنا ننقطع عن شرب الماء مستعيضين عنهُ بذلك الشراب المسمى عندهم (ماداف)

اتفق أن ذلك الهندي دعانا مرَّةً لتناول طعام الغداء عندهُ فأجبنا الدعوة ولما انتهينا من تلك الاكلة التي غبنا فيها وغسلنا أيدينا قدم لنا الرجل طبقًا عليهِ ورق أخضر عريض كورق الخروع وجانب من النورة المعجونة وجوزة الطيب ونوع آخر حرّيف يشبهُ خشب القرفة وتنباك ، والغرض ان كلاًّ منا يركّب لهُ مضغةً من تلك الاصناف وتسمى عندهم (تامبول) فامتنعنا فأخذ هو وثلاث ضيوف آخرين من الهنود ثم أُديرت عليهم المباصق فكان بصاقهم أحمر كالدم وهم متعوّدون ذلك رجالاً ونساءً وأولادًا ويستعملونهُ في كل وقت كالتدخين ويقولون انهُ مفيد جدًّا لتعطير الفم وتقوية الاسنان . فلما عافت أنفسنا منظر المباصق عجلنا بالنزول وأقسمنا أن لا نلبي دعوة كهذه مرة أخرى

ومن عادات تلك البلاد (التكبيس) وهو ما يجري عندنا أحيانًا عقب الاستحمام في الحمامات العمومية وهو يكون عندهم في أيّ وقت يشعر فيهِ الانسان بتعب في الجسم ويكون غالبًا عند النوم وبعد الاستيقاظ وهي عادة مألوفة في تلك البلاد ، ولقد علمتُ أنها شائعة شيوعًا عظيماً في بلاد الهند حتى ان من يكون جالسًا على احدى القهاوي هناك يدعو قائلاً «تشامبي» ومعناها مكبّس . فيأتي اليهِ صبيان (كمن يدعو في بلادنا مساح أحذية فيسرع اليهِ كثيرون) فيكبسهُ وهو على قارعة الطريق . ومن رأيي انها مفيدة صحيًا وهي غير حسنة أدبيًا اذا كان المكبس أنثى

بعد أن مضى علينا هناك نحو شهرين رأى زميلي أن يعود للوطن عاجلاً حتى بعد أن يستريح من عناء السفر بعض أيام يباشر أعماله المصلحية ، أما أنا فرأيت أن أقصد بلاد اليابان أو البقاء بزنجبار فأخذ زميلي في تثبيط عزمي بل في معاتبتي على عدم الوفاء بوعدي اذ كنا اتفقنا قبل الخروج من الوطن أن نعود معاً وبعد أن طال بنا الاخذ والرد اقتنعتُ بأقوالهِ وانصعتُ لافكاره ومن ثمَّ تأهبنا للعودة

ففي مساء يوم الاربعاء ٢٧ مارث سنة ٩٠١ ركبنا الباخرة «كاليدونيان» وفي صباح ٢٨ منهُ عند الساعة الثامنة أقلعنا ونظرنا الى زنجبار النظرة الاخيرة . أما السفينة فكبيرة ومتوفرة بها شروط الراحة الا أن سطحها كان مشحوناً بعمال صينيين عائدين من مدغشكر لبلادهم عن طريق جيبوتي وهيئتهم رثة ووجوههم شاحبة صفراء ضعيفة وشعورهم مضفرة تصل عند أغلبهم الى الساقين وحالتهم قذرة كحالة صغار العمال في الامم الاخرى وبالجملة فان منظرهم كئيب مقبض جداً ، ومما كان يزيد الركاب انقباضاً منهم ادمانهم على تدخين الافيون ، وكيفية تعاطيهِ هو انهم يوقدون سراجاً صغيراً وفي يد الواحد منهم قصبة تبلغ نصف متر وبأحد طرفيها إناء خزفيّ وفيهِ الافيون فيقرّبونهُ من السراج ويشفطون فتنتشر منهُ رائحة كريهة مقبضة وقد تضرَّر منها كثيرون من ركاب الدرجتين الثانية والثالثة لقرب محلاَّت جلوسهم على السطح منهم ولكن من ذا الذي يستطيع أن يحرمهم من ذلك وهي عادة متأصلة في صغيرهم وكبيرهم

أما طريقة تناولهم الطعام فاني أمتدحها فلكل واحدٍ وعاء خصوصي يأكل فيه كما انهم لا يمسون الطعام بأناملهم وطعامهم الارز المسلوق مع شيء من اللحم وهم يتناولونهُ بواسطة مقبض من حديد مركب من قطعتين والآلة بسيطة أشبه بقلمين تماماً وبعد انتهاء الطعام يغسلونها



صاحب السياحة وزميله فى السياحة الثانية بزنجبار

والبلاء الاكبر انهم كبارًا وصغارًا مضروبون بضربةٍ من أشد الضربات ألا وهي المقامرة فمع ما يظهر عليهم من الضنك والفاقة فانهم يقامرون بعضهم بكل مافي أيديهم ووالله مررت مرّةً عليهم ولاحت مني التفاتة الى ما يلعبونهُ واذ بكومةٍ من ذهبٍ وفضة لا تقل عن خمسة جنيهات معرّضة في وسطهم لدور اللعب فوقفت ريثما التقطها أحدهم ولم يكن اندهاشي أقل من حزن الخاسرين

أما الباخرة فأصبحت وأمست تسير سيرًا متواصلاً باعتبار ثلاثة عشر ميلاً في الساعة الواحدة وكان البحر هادئًا جدًّا (مثل الزيت) حتى في الساعة الثالثة من صباح يوم الاربعاء ٣ ابريل دخلنا مينا چيبوتي

اتفق أن توفي أحد الصناع الصينيين قبل منتصف الليل ولكن لما كنا قريبين من چيبوتي لم تطرح جثتهُ بحرًا حسب الاصول بل أبقوها لانزالها بچيبوتي

ولهذه المناسبة أقول ان من يتوفاهُ الله بالباخرة قبل وصولها الى أول مينا سترسو عليها باكثر من اثنتي عشر ساعة تطرح جثتهُ بحرًا والكيفية أنهم يبدأون بعمل الاجراآت القانونية من حيث حصر أمتعتهِ وتدوينها بمحضر والكشف علي الجثة بمعرفة حكيم الباخرة ثم يؤدون الرسوم الدينية لكلٍّ حسب دينهِ وبعد ذلك تربط في الجثة مثقلات من رصاص حتى لا تطفو على سطح الماء ويجتمع الركاب على اختلاف درجاتهم وكلهم حاسرو الرؤوس من باب احترام الميت مهما كان وضيعاً ثم تقف الباخرة نحو دقيقتين ومن ثم يرفع البحارة الجثة ويطرحونها من عند مؤخر السفينة وبذا ينتهي الامر

أما من جهتنا فقد نزلنا البرّ عند الصباح وتناولنا الغذاء بأحد فنادقها ثم عدنا للباخرة التي أقلعت من هناك في الساعة الثانية بعد الظهر . وعند الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم رأينا وحشاً بحرياً هائلاً يتخبط في الماء قريباً من الباخرة وبعد

الغروب شاهدنا منائر لارشاد السفن حتى تجتنب الصخور وتتقي شرّ الاصطدام بها ثم أنوار بلدة پيريم الانجليزية واستمرّ البحر هادئاً حتى في يوم ٦ منهُ دوى البحر الاحمر وعلت أمواجهُ واشتدَّ البرد بعد أن كنا بالامس متضايقين من شدة القيظ . وفي صباح ٧ منهُ ظهرت لنا الشواطئ المصرية وأشباح السويس وعند الساعة الواحدة بعد الظهر ألقت الباخرة مرساها فودعنا كل من تعارفنا بهم في الباخرة ثم نزلنا بأحد القوارب وقد قاسينا اتعاباً في قلم الجوازات والجمرك والمحافظة في وقتٍ نحن أحوج فيهِ للرّاحة وكانت هذه الاتعاب سبباً في اصابة زميلي بالحمى ولذا اضطررنا للبقاء بالسويس بضع أيام حتى يتعافى وفي يوم الخميس ١١ منهُ ركبنا القطار الى القاهرة

* * *

ولقد يقال أني في سياحتيَّ الاولى والثانية لبثتُ نحو اثنين وستين يوماً راكباً البحر على ظهور سبع بواخر : خمس فرنساوية واثنتين ألمانيتين ، وقد كان معدل أجرتي في سفر البحر عن اليوم الواحد نحو عشرين فرنكاً ما بين ركوبي بالدرجتين الرابعة والثالثة ، أما مجموع المسافة التقريبية التي قطعتها فنحو تسعة آلاف وسبعماية وخمسين ميلاً

كم منزل في الارض يألفهُ الفتى وحنينهُ أبداً لاوّل منزلِ

على أن هذا القول لا يطفئ شعلة ميلي الى السفر الى أقطار أخرى سحيقة


عند ما تسنح لي الفرَص وتسمح ليَ

الظروف ان عاجلاً أو آجلاً

والجنون فنون

﴿ تم ﴾

فهرست


Bibliotheca Alexandrina
03779708